دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
**ARCIF** Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
**AIF** Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

# علاقات نصارى بني تغلب في شمال العراق بالعرب المسلمين وبالبيزنطيين
## من القرن السّابع إلى القرن العاشر الميلادي

**د. بشير العبيدي**
أستاذ مساعد في التّاريخ الوسيط
كليّة الآداب والفنون والإنسانيات – منّوبة
جامعة منّوبة – الجمهورية التونسية

## مُلَخّص

*يندرج هذا البحث ضمن موضوع تاريخ علاقات العرب المسلمين بمجموعة من أهل الذّمة في شمال العراق خلال القرون الأولى للإسلام وذلك ضمن إطار أوسع يحيل على جانب من تاريخ علاقة العرب بالبيزنطيين. فتبحث هذه الدراسة علاقة نصارى بني تغلب في شمال العراق بالعرب المسلمين ثم علاقتهم بالبيزنطيين من القرن الأوّل الهجري/السّابع الميلادي إلى القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي). فأثناء بداية سيطرتهم على الجزيرة الفراتيّة أقنع قادة جيش العرب المسلمين هؤلاء العرب النّصارى بالانسلاخ عن البيزنطيين والقتال إلى جانبهم هم لكونهم عربا مثلهم، وذلك بصرف النظر عن نصرانيتهم. وما إن تحقّق النّصر العسكريّ حتى عرض المسلمون الإسلام على بني تغلب فرفضوا. ولم يقبلوا أيضا بوضعية أهل الذّمة بصيغتها المعهودة، وتمكّنوا لعدّة أسباب من عقد صلح مع عمر بن الخطاب ضمن لهم وضعا مميزا عن باقي أهل الذمة. مع مرور الزّمن، وخلافاً لما نصّ عليه الصّلح المبرم، عانوا من سياسة ضريبيّة مجحفة. وفي سنة (٣٢٩هـ/٩٤١م) اضطرّ بنو حبيب، وهم بطن من تغلب، إلى اللجوء إلى بيزنطة. ولكونهم نصارى كبقية رعايا الإمبراطورية، ونظرًا إلى حاجة البيزنطيين لتعمير المناطق الثّغرية التي استردّوها من العرب المسلمين، وجد هؤلاء اللاجئون الحظوة والدّعم، واندمجوا في الدّولة البيزنطيّة، وتحالفوا مع الأسياد الجدد، وشنّوا الغارات على المناطق المجاورة من دار الإسلام.*

## بيانات الدراسة:

| | | | |
|---|---|---|---|
| تاريخ استلام البحث: | ٢٧ | يناير | ٢٠٢٣ |
| تاريخ قبـول النشـر: | ٢٤ | فبراير | ٢٠٢٣ |

## كلمات مفتاحية:

العرب المسلمون؛ نصارى بني تغلب؛ الصلح؛ أهل الذّمّة؛ بنو حبيب؛ البيزنطيون؛ الرّوم؛ الجزيرة الفراتيّة.

## معرّف الوثيقة الرقمي: doi 10.21608/KAN.2023.324152

## الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بشير العبيدي. "علاقات نصارى بني تغلب في شمال العراق بالعرب المسلمين وبالبيزنطيين: من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٣٢ – ٤٩.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

**Corresponding author**: labidibechir@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كَان التَّاريْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

## مُقدّمَةٌ

لمّا توغّلت جيوش العرب المسلمين في الجزيرة الفراتيّة[١]، بادرت معظم القبائل العربيّة باعتناق الإسلام، وسارعت إلى مناصرة المسلمين ضد الرّوم. وقد كانت قبيلة بني تغلب بن وائل التي حلّت بالجزيرة منذ أواخر القرن الخامس الميلادي وبداية القرن الموالي [٢] ضمن هذه المجموعات الفاعلة في بعض مجريات تلك الأحداث. ولكنّ اختلف موقفها عن موقف غيرها من القبائل ليس في رفض الكثير من أبنائها اعتناق الإسلام فحسب وإنما أيضا في تمسّكهم برفض دفع الجزيّة التي اعتاد المنتصرون فرضها على أهل الكتاب الذين خيرّوا البقاء على دينهم. عندئذ لم تجد السلطة المركزيّة بدّا من منح هذه المجموعة من النّصارى وضعا خاصا صلب دار الإسلام ممّا أثار بشأنهم جدلاً. ومع مرور الزّمن، يبدو أنّ بعض بنود الصّلح الذي عقدوه مع الخليفة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣ هـ/٦٣٤-٦٤٤م) لم تحترم من قبلهم وكذلك من قبل بعض أولي الأمر من المسلمين. ثم مع نهاية الثلث الأوّل من القرن الرّابع الهجري، اضطرّ بنو حُبَيْب، وهم بطن من بطون بني تغلب، إلى اللجوء إلى بلاد الرّوم والانضواء تحت راية الإمبراطوريّة البيزنطيّة.

ولئن أبدت مصادرنا مقدارًا هامًّا من الأمانة في نقل الأخبار المتعلقة بهذه الأحداث، فإنّ جزءا كبيرا من المادة التي وصلتنا بين طيّات صفحاتها ليس في نهاية المطاف إلا ما دوّنه أحفاد المنتصرين في زمن متأخر ودون نقد وتمحيص لأخبار كانت متداولة شفويًّا لا شكّ لدينا في أنّ الزّمن قد طوى تفاصيل عدّة منها، فشاب مضامين هذه الرّوايات بعض الغموض، وبدا بعضها الآخر محكومًا بموقف مؤلّفيها من السّلطة، وربّما تسرّبت إليها بعض الأخطاء. وجدنا إذن في هذه النّقطة وفي غيرها من النّقاط التي سنُجَلّيها في حينها ما يستدعي العودة إلى موضوع نصارى بني تغلب. وإنْ كنّا قد استفدنا من بعض الأعمال العلميّة الجدّية فإنّنا نطمح إلى تقديم الإضافة من خلال ما نطرح من إشكاليّات[٣]، ونسعى كذلك إلى تجاوز بعض الدّراسات التي اكتفت بتكرار ما ذكر في المصادر دون تحليل ونقد، ودون فهم معمّق لجوهر المسألة ولدقائقها[٤].

وقد ارتأينا في هذا العمل جمع شوارد روايات مختلف المصادر، وتحليل مضامينها، ومقارنة بعضها ببعض، ونقدها كلّما كان ذلك ممكنا، وإعادة تركيب أحداثها بعيدا عن مجرّد سردها. كما رمنا سبر أغوار ذهنيّة الفاعلين، لنفهم بعمق خلفيّات الصّلح الذي عقده نصارى بني تغلب مع عمر بن الخطّاب وتفاصيله، ونطرق بعض الجوانب المتروكة من تاريخ هؤلاء العرب النّصارى في شمال العراق. ولن يكون من اليسير بلوغ مرامنا إلاّ على ضوء ما نطرح من إشكاليّات مغايرة عما سبقنا إليه غيرنا من الباحثين من طرح، وعن طريق فحص تاريخ هذه المجموعة على الأمد الطويل. أي عبر النّظر في خلفيّات علاقتهم بالعرب المسلمين وطبيعتها، ثم النّظر في علاقة بني حُبَيْب التّغالبة بالبيزنطيين، وذلك خلال الفترة الممتدّة من نهاية العقد الثّاني من القرن الأوّل الهجري إلى منتصف القرن الرّابع الهجري/ من نهاية العقد الرّابع من القرن السّابع الميلادي إلى منتصف القرن العاشر الميلادي.

فكيف كانت علاقة نصارى بني تغلب بالعرب المسلمين أثناء بداية سيطرة المسلمين على الجزيرة الفراتيّة؟ وما هي خلفيّات الصّلح الذي عقدوه مع عمر بن الخطاب وما هي أبرز مضامينه ومآلاته؟ ثمّ كيف اندمج بنو حُبَيْب أحد بطون بني تغلب في الدّولة البيزنطيّة لمّا التجؤوا إلى بلاد الرّوم في نهاية الثّلث الأوّل من القرن الرّابع الهجري؟

## أولاً: تحالف نصارى بني تغلب مع العرب المسلمين ضدّ الرّوم أثناء فتح الجزيرة الفراتيّة

بيّنت المصادر أنّ معظم مدن الجزيرة الفراتيّة فُتحت بالأمان، فتحها عياض بن غَنم سنة ١٧هـ/٦٣٨م بتكليف من الخليفة عمر بن الخطاب[٥]. ونظرًا لشساعة المنطقة فقد استعان "أمير القتال" بعدد من القادة وقام بتوزيع المهام عليهم[٦]. لكنّ مصادرنا اختلفت بشأن القائد الذي توجّه إلى بني تغلب وعرض عليهم الإسلام. فهو عُمَيْر بن سعد في رواية البلاذري (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢م)[٧] ، وهو الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط في رواية الطبري (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م) وكذلك فيما دوّنه ابن الأثير (ت سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣م)[٨]. لا يمكن القبول بأنّ عُمَيْر بن سعد هو من تولّى هذه المهمّة الخطيرة. فلقد كان في ذلك الوقت "غلاما حدث السّن ليس إليه من الأمر شيء"[٩]. ثم إذا

علمنا أنّه توفي سنة (١٠٥هـ/ ٧٢٤م)، وإنْ قيل أنّه عُمِّر[١٠]، زادت شكوكنا في اضطلاعه بقضيّة بني تغلب. فلمّا فُتحت الجزيرة لازال هو غلاما لم يَحُزْ بعدُ الحنكة والخبرة اللاّزمتين لمفاوضة شيوخ تلك القبيلة. ولم يُوجَّه آنذاك إلاّ "إلى رأس العين في خيل ردءًا للمسلمين"[١١] أي مُعينًا ناصرًا. فللباحث إذن أن يقبل بالرّواية التي تقول أنّ من تولىّ أمر نصارى بني تغلب هو الوليد بن عقبة، وقد ذُكر اسمه في أقدم الرّوايات التي نقلها الطبري، وهي روايات أكثر تفصيلا ممّا دوّنه البلاذري[١٢]. وقد ذُكر أنّه كان حيًّا في سنة (٢٧هـ/ ٦٤٨م)، ثمّ توفيّ في الرّقّة[١٣].

وإذا استثنينا دوره في السّيطرة على رأس العين، فإنّ عُمَيْر بن سعد لم يكن له – على ما يبدو – دورًا كبيرا في أحداث السّيطرة على الجزيرة تحت قيادة عياض بن غنم. ولمّا توفي عياض سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١م، تولىّ هذه المنطقة سعيد بن عامر بن حذْيم الذي توفيّ بعد ذلك بوقت قصير، عندئذ عينّ عمر بن الخطّاب عُمَيْر بن سعد وال هناك[١٤]. ولا يمكن القبول بفرضية نظره في أمر نصارى بني تغلب عندما أصبح واليًا على الجزيرة، إذ لا توجد أيّة إشارة في المصادر ترجّح مثل هذه الفرضيّة، ولا يمكن أن تكون قضيّة هؤلاء النّصارى قد أُجِّلت إلى سنوات قليلة بعد انتشار الإسلام في المنطقة. من المؤكد أنّها من القضايا التي عولجت بمجرد زوال نفوذ الرّوم من شمال العراق.

بمجرد أن عبر عياض بن غنم الفرات متّجها نحو الجزيرة الفراتيّة، بلغه أنّ البيزنطيين أعدّوا جيشا من العرب والأرمن والرّوم لحربه، وأنّ المقاتلين العرب المنضوين تحت رايتهم لاسيما منذ أن هزم الإمبراطورُ هرقل (٦١٠-٦٤١م) الفرسَ في معركة نينوى في نهاية سنة ٦٢٧م وسيطر على شمال العراق، قد تقدّموا قبل غيرهم لمواجهته، فبعث إليهم الوليد بن عقبة[١٥]. فلمّا قدم الوليد على بني تغلب التقى أمراءهم، وحثّهم على القتال إلى جانب العرب المسلمين ضدّ الرّوم. عندئذ "نهض كافرهم ومسلمهم كلّهم إلاّ إيّاد بن نزار فإنّهم ارتحلوا بقبيلتهم إلى بلد الرّوم"[١٦]. يبدو أنّ الواقدي (ت. ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) يشير في نصّه هذا وفي مواضع أخرى من روايته إلى النّصارى عربًا كانوا أو رومًا بعبارة كفّار أو مشركين[١٧]. أمّا المسلمون منهم فهم أولئك الذين أعلنوا إسلامهم لمّا وفدوا على الرسول محمد (ﷺ) في المدينة، وكذلك الذين أسلموا عندما فتح عبد الله بن المعتّم أحد قادة جيش سعد بن أبي وقّاص تكريت سنة (١٦ هـ/٦٣٧م)[١٨]. ورغم أنّنا لا نعرف الوزن العددي للذين بقوا على النّصرانية من بني تغلب في الجزيرة الفراتيّة فإنّ هؤلاء لم يكونوا قليلي العدد مقارنة بمن اعتنق الإسلام من أبناء قبيلتهم[١٩].

وتبينّ نفس الرّواية أنّه خلال المرحلة الأولى من دخولهم الجزيرة استند العرب المسلمون إلى حجّة العروبة فشقّوا صفوف من بقي هناك من الجيش البيزنطيّ بعد معركة نينوى، وتمكّنوا من إقناع بني تغلب بل وإقناع معظم "العرب المتنصرّة" بالانسلاخ عن الرّوم والمشاركة في القتال ضدّهم[٢٠]، وكانوا قبل ذلك قد اُسْتُنفروا للقتال إلى جانب جيش هرقل في بلاد الشام[٢١]. عندئذ وافق معظم العرب النّصارى المسلمينَ الرأي[٢٢]، وذلك بصرف النّظر عن قبولهم بالإسلام من عدمه. كما بينّ الوليد بن عقبة لبني تغلب أهميّة الانتصارات العسكرية التي تحققت في بلاد الشام ضدّ الرّوم وحلفائهم من العرب، وأنّ موازين القوى باتت لصالح العرب المسلمين. ثم قال لهم: "والصّواب أن ترجعوا إلينا وتكونوا حزبنا"[٢٣]، ممّا حفّزهم على الالتحاق به.

إنّ تدقيق النّظر فيما قاله الوليد لزعماء بني تغلب يشير بوضوح إلى أنّه طلب منهم التّحالف مع العرب المسلمين لنصرة الإسلام ولم يعرض عليهم التّخلي عن نصرانيتهم. ولا شيء يدلّ على أنّه قد عُرضت عليهم في تلك اللحظة شروط البقاء على النّصرانية إن لم يقبلوا بالإسلام. فلقد كان المسلمون حينئذ منشغلين بالجانب العسكري وما يتطلّبه من خطط للقتال ومن تحالفات حتّى مع غير المسلمين من العرب، أكثر من انشغالهم بالتّشريعات التي تتعلّق بأهل الكتاب. فإنْ هم خيرّوا نصارى العرب بين الإسلام ووضع الذّمة قبل التّخلص من الرّوم ربّما لرفض هؤلاء قطع صلتهم بالرّوم من أجل التّحالف مع العرب المسلمين، ولفضّلوا الحفاظ على حلفهم السّابق حفاظا على دينهم وعلى وضعهم. ومن هذا المنطلق، يبدو أنّ العرب المسلمين قدّموا أنفسهم في صورة الحامل للواء استقلال جميع العرب، مسلمين ونصارى، عن القوى الأجنبيّة. وفي نفس الوقت ربّما رأى عدد من نصارى العرب في العرب المسلمين خلال أولى أيّام توغّلهم في الجزيرة صورة المحرّرين لهم من سيطرة الرّوم،

لاسيما وأنّ الأسياد الجدد، وخلافا للرّوم، قد أظهروا مقدارا كبيرا من احترام حريّة معتقدات أهل الكتاب[٢٤]. لم تكن في تلك اللحظة مسألة أسلمة مجموعات من العرب النّصارى مطروحة كأولويّة وإنْ كانت ماثلة في أذهان بعض أولي الأمر من المسلمين كعمر بن الخطاب والوليد بن عقبة[٢٥]، وربّما في أذهان نفر من بني تغلب؛ فلقد أُجِّلت إلى حين، وكان رابط العرق ومفعول العروبة أقوى. ولعلّ الطّموح السّياسي للعرب النّصارى هو كذلك من العوامل التي حرّكتهم ضد الرّوم. فمن الجائز أن يكون أمراؤهم قد فكّروا بمكاسب سياسيّة مهمة دون اضطرارهم إلى التّخلي عن نصرانيتهم.

إنّ ما قاله الوليد بن عقبة لنصارى بني تغلب هو تقريبًا نفس ما قاله عياض بن غنم لثعلبة ولبني ربيعة لمّا جاؤوه. فقد طلب منهم الانضمام إلى جيشه ولم يعرض عليهم الإسلام إلا لَمًا وتلميحا، وتلك على ما يبدو خطّة مُعدّة مسبقًا. ثم قالَ لهم مرغّبا ومتحدّثا عن جميع العرب دون تمييز بين مسلم وكتابي إنّ الرّسول محمد (ﷺ) قد "وعدنا ووعده حقٌّ، بملك كسرى وقيصر وكنوزهما"[٢٦]. ويضيف الواقدي أنّهم "لمّا سمعوا كلام عياض بن غنم أسلم كافرهم"[٢٧]. لا شكّ لدينا في أنّ الكثير من عرب الجزيرة قد اعتنقوا الإسلام في تلك اللحظة. ومن البيّن أنّ بعضهم كان يحفّزهم المُلك الموعود والغنائم المنتظرة، أكثر مما كانت تدفعهم قناعتهم بالدّين الجديد؛ فلم يتردّدوا في إعلان تحالفهم مع العرب المسلمين، وهو تحالف عسكري سياسي دون مواربة؛ ولكن إذا نظرنا إلى جوانبه الدّينية تبدو الأمور في ذلك الوقت غير واضحة للطرفين بالدّقة المطلوبة؛ ووجد كل طرف في ظاهر المسألة فقط ضالته.

لكن بعد أن حقّق العرب المسلمون وحلفاؤهم نجاحات عسكرية سريعة ضد الرّوم وحلفائهم الذين ما لبثوا أن تقهقروا[٢٨]، وبعد أن أصبحت المنطقة شبه خالية من جيش غير العرب، قفزت المسألة الدّينيّة المؤجلة إلى السّطح. وهذا ما لا تذكره المصادر بالوضوح المطلوب، وإنّما على الباحث اكتناهه بعد قراءة متأنّية للمصادر وغربلة رواياتها ونقدها ومقابلة بعضها ببعض، وبعد إعادة ترتيب الأحداث ترتيبا منطقيا. عندئذ التفت القادة المسلمون إلى مسألة التّشريع التي تخصّ غير المسلمين: "فأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من بني تغلب إلاّ الإسلام"[٢٩]. وفي ذلك إشارة إلى أنّ أغلبهم لم يعتنقوا هذا الدّين إلى تلك اللحظة. ما يجب أن يسجّله الباحث في موقف الوليد هذه المرّة هو طلبه بوضوح تام من نصارى بني تغلب اعتناق الإسلام ورغبته في الانتقال بعلاقة المسلمين بهم من علاقة مبنيّة على التّحالف العسكري، وقد كانت قصيرة العمر بسبب قصر المدّة التي استغرقتها عمليّة السّيطرة على الجزيرة، إلى مرحلة جديدة ومختلفة عمّا سبقها تُبنى فيها العلاقة على الانصهار في الدّين الجديد، وذلك لقناعته بأنّ عروبتَهم حجّةٌ عليهم كي يعتنقوا الإسلام[٣٠].

غير أنّ بني تغلب رفضوا طلبه. فقد كانوا على اقتناع متين بكونهم أصحاب ديانة سماويّة توحيديّة حرصوا على التّمسّك بها[٣١] لأنّها لا تضعهم من وجهة نظر إيمانيّة على قدم المساواة فحسب مع غيرهم من العرب المسلمين – وتلك مساواة لا تقلّ عنها مساواة النّسب في شيء –وإنّما أيضا للنّصرانية التي اعتنقوها منذ القرن السّادس الميلادي الأسبقيّة التّاريخيّة على الإسلام. ولهم كذلك الأسبقيّة الإيمانيّة كأشخاص اعتنقوا ديانة توحيديّة على المذهب اليعقوبي في وقت كان الكثير من العرب وثنيين[٣٢]. يبدو أنّهم فاوضوا الوليد بن عقبة من أجل "أن يأذن لهم في الجلاء" بسلام ولا يُعترَضُ سبيلهم[٣٣]. ومن المرجّح أنّ حديثهم عن الجلاء كان مجرّد تهديد راموا من ورائه الضّغط على المسلمين لتحقيق المكاسب، فليس من الهينّ أن يفرّطوا في أراضيهم لأنّهم "أصحاب حروث ومواش"[٣٤]. لكنّ الوليد تمهّل. لذا يبدو أنّه قد جرت بين الطّرفين مفاوضات متقطّعة بحسب تطوّر المواقف من الجهتين. ولا بدّ أنْ يكون الوليد قد أدار في المرحلة الأولى المفاوضات بنفسه مع وجهاء بني تغلب لأنّه كان قد اجتمع بهم وتعرّف إليهم بعد أنْ كلّفه عياض بن غنم بالتّوجّه إليهم منذ الوهلة الأولى لدخول جيش المسلمين الجزيرة[٣٥]. ويمكن أن نستنتج أنّه حينما اصطدم برفض هؤلاء النّصارى الإسلام ولم يتوصّل إلى حلّ وكاد زمام الأمور ينفلت منه، وتلك تفاصيل لا تذكرها مصادرنا، لم يجد بدًّا من رفع شأنهم إلى الخليفة، فبعث إليه "برؤوس النّصارى وبديّانيهم" بحسب ما دوّنه الطبري [٣٦].

## ثانيًا: صلح عمر مع نصارى بني تغلب (الخلفيّاتُ والمضامينُ والمآلُ)

لئن قبلت عدّة مدن وقبائل في الجزيرة الفراتيّة بوضع الذّمة الذي يقتضي أساسا دفع الجزية، ودخلت مجموعات أخرى في الدّين الإسلاميّ[٣٧]، فإنّ بني تغلب، وكما ذكرنا آنفا، رفضوا طلب الوليد بأن يعتنقوا الإسلام، وهذا أمر طبيعيّ. ولم يقبلوا بعد ذلك دفع الجزية المفروضة على الكتابيّ لمّا أراد أن يلزمهم بها عمر بن الخطاب[٣٨]، أي أنّهم رفضوا وضعية أهل الذّمّة، وهذا أمر استثنائيّ ومستجدّ بالنّسبة إلى دولة المدينة. وتفسرّ المصادر موقفهم هذا بالقول إنّهم "قوم من العرب نائفون من الجزية"[٣٩]. بمعنى أنّ بني تغلب اعتبروا هذه الضرّيبة المفروضة على أعناق غير المسلمين – والتي ورد بشأنها في القرآن ما نصّه: "حتّى يُعْطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[٤٠] – مذلةً لهم أمام بني جلدتهم من العرب الذين اعتنقوا دينا غير دينهم. ورأوْا فيها صَغَارًا بيّنًا لم يقبلوا به لاسيما وأنّ لهم شوكة قد تمنعهم[٤١]. ولذلك تمسّكوا بعدم دفعها أثناء تفاوضهم مع الخليفة، وكرّروا تهديدهم السّابق للضّغط على عمر بالقول: "لئن وضعت علينا الجزاء لندخلنّ أرض الرّوم"[٤٢].

غنيّ عن البيان أنّ الخليفة قد أخذ في حسبانه هذا التّهديد الذي سبق وأنْ نفّذه بطن من بطون العرب. فبمجرد وصول جيش عياض بن غنم إلى الجزيرة غادرت إيّاد بن نزار المنطقة واحتمت بأرض الرّوم. فكتب عمر بن الخطاب إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين بن هرقل (٦٤١م) يطلب إخراجهم، وهدّد بطرد النّصارى إن لم ينفّذ طلبه؛ فأُعيدوا إلى ديارهم إلاّ عددا منهم "تفرّقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الرّوم"[٤٣]. وهذا يكشف عن جانب من ذهنية العرب الذين لم يقبلوا في ذلك الوقت بأن ينسلخ عنهم بنو جلدتهم ويلوذوا بجانب الرّوم[٤٤]. وقد ذكر الواقدي أنّ سعيد بن زيد أحد قادة جيش المسلمين الذي سيطر على الجزيرة خاطب عاصم بن رواحة الإيّادي الذي رجع من بلاد الرّوم بعد أن كان وقومه قد لجؤوا إليهم وتنصرّوا عندهم قائلاً: "أخبرني أيُّ مناسبة بينكم وبين الرّوم، حتّى لذت بجانبهم، وتركت العرب العَرْبَاء، وأنت منهم وأنت منّا وإلينا، وحَسَبُكَ حَسَبُنا ونَسَبُك نَسَبُنا؟ لأنّ أنمار وإيّاد وربيعة ومضر كلُّها ترجعُ إلى نزار بن معد بن عدنان"[٤٥]. وهذا هو نفس موقف عمر بن الخطاب لمّا عاتب وفد بني تغلب قائلا "خالفتم أمّتكم"[٤٦]؛ وعلى الباحث أن يحمل في هذا السّياق لفظة "أمّة" على معناها العرقي لا على معناها الدّيني. كما ظلّ أولو الأمر من العرب المسلمين ينظرون إلى نصارى بني تغلب بنفس منظار العروبة حتى بعد مرور فترة طويلة على فرض سلطانهم على الجزيرة، وظلّ المعطى الدّيني الحاجز النّفسي الفاصل بين مجموعتين من أمة واحدة. ألم يقل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) لزعيمهم إسماعيل: "إنّك تُخْجِلُ جميع العرب بسجودك للصّليب وأنت زعيم عربي فأطعِني وأسلم"[٤٧]. كأنّ بني تغلب بدورهم قد نظروا إلى الدّين الإسلامي بمنظار قبلي، فالدّين نزل بين ظهراني قريش، وهم غير مستعدّين للخضوع إلى دينها الذي يعني ضمنيًّا الخضوع لسلطان هذه القبيلة التي هم من نفس جنسها. وتلك الذّهنيّة لم تكن غريبة على العرب حتى المسلمين منهم في تلك الفترة[٤٨]، فما بالك بغير المسلمين؟

ولقد قام بعض مسلمي تغلب بدور الوسيط بين الخليفة ونصارى قبيلتهم، فاقترحوا أنْ تُضاعف عليهم الصّدقة[٤٩]. وذكر أبو يوسف يعقوب (ت. سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م) أنّ عمر استشار بشأنهم عبادة بن النّعمان التّغلبي الذي كان قد أسلم من قبل، فبيّنّ له ضرورة مراعاة قوّتهم العسكريّة من جهة، ومراعاة مجاورتهم للرّوم من جهة ثانية، وأنّه من الأفضل أن يعطيهم شيئا لكسب ولائهم، فلا يظاهرون العدوّ ضدّ المسلمين[٥٠]. ما يهمّنا أنّ الحلّ المقترح على الخليفة لا يتضمّن دفع الجزية، وأنّ ما قاله هذا التّغلبي ليس مجرّد رأي اقتضته الحمية العصبيّة فانتصر لقبيلته حتى وإن لم يكن معتنقا لعقيدتها؛ بل هذا الرّأي يرفده في واقع الأمر ما قامت به إيّاد بن نزار. أمّا بنو تغلب الذين لم يقبلوا بأداء الجزية فقد قالوا للخليفة بحسب رواية الطبري: "خذ منّا شيئا ولا تسمّه جزاء"[٥١]. وقالوا بحسب رواية البلاذري: "أمّا إذ لم تكن جزية كجزية الأعلاج فإنّا نرضى ونحفظ ديننا"[٥٢]. إنّ الأعلاج أو العلوج بحسب هذا التّوصيف هم الرّوم النّصارى في بلاد الشّام وفي شمال العراق، أي غير العرب من الكتابيين؛ بينما بنو تغلب هم من العرب. إنّه ذات الموقف الذي اتّخذه جبلة بن أيهم الغسّاني حليف الرّوم على إثر هزيمته في

معركة اليرموك لما أرسل إليه يزيد بن أبي سفيان "أنْ اقطع على أرضك بالخراج وأداء الجزية فقال إنّما يؤدّي الجزيةَ العلوجُ وأنا رجل من العرب"[٥٣].

لقد أدرك الخليفة دون عسف ما قد تؤول إليه الأمور على المستويات الدّيمغرافيّة والاقتصاديّة والعسكريّة إن لم يكن مستعدًّا للتّفاوض وتقديم بعض التّنازلات الهامّة، وربّما وجد فيما اقترحه عليه التّغلبي جانبا من الصّواب والحكمة لا يُستهان به. وخلافا لما كتبه البلاذري، فهم لم يغادروا ديارهم فيرسل إليهم ويردّهم[٥٤]. إذن لم يكن الخليفة يقبل بلجوء هذا العدد الكبير من العرب النّصارى إلى بيزنطة فيتسبّب في فقدان الأرض عمّارها، ويحرم خزينة الدّولة من مبالغ ماليّة هامّة مُتَوقّعَة. لقد كانت له رؤية ثاقبة في هذا الجانب من إدارة الدّولة وكذلك في جوانب أخرى، وليس أدلّ على ذلك ممّا ذُكر عنه لمّا طُعن، فقد أوصى "بأهل الأمصار خيرا فإنّهم جُباة المال وغيظ العدوّ وردْء المسلمين"[٥٥]. عندئذ رأى أنّه لا بدّ من عقد اتّفاق لا جزية فيه[٥٦]، وهو اتّفاق شبيه بما عقده مع نصارى تنّوخ وبهراء[٥٧].

لقد منح عمر بن الخطاب لنصارى بني تغلب هذا الامتياز الضرّيبي مراعاة لعدّة اعتبارات من بينها قوّتهم العسكريّة[٥٨]. وذلك لا يعني أنّه كان يفكّر في استخدام هذه القوّة لصالح الدّولة الإسلاميّة ضدّ الرّوم بعد أن بسط سلطانه على الجزيرة، ولم تذكر المصادر أنّ هؤلاء شاركوا في عمل عسكريّ ما لفائدة المسلمين بعد أن عُقد معهم الصلح. بل كان عمر يفكّر في تحييد قوّتهم العسكريّة، وكسْب ولائهم السّياسي، وحرصَ على ألاّ ينتقلوا إلى بلاد الرّوم كي لا يتحالفوا مع بيزنطة ضدّ دار الإسلام[٥٩]. كما أنّ الخليفة لم يبد تشدّدا في موقفه منهم مراعاة لكونهم قد انسلخوا عن الرّوم وانضمّوا إلى جانب المسلمين لمّا غزوا الجزيرة الفراتية. أمّا ما أبداه من صرامة تجاه الملك جبلة بن الأيهم الغسّاني وقومه من العرب النّصارى في بلاد الشّام، فلم يكن بغاية طردهم إلى بيزنطة، وإنْ صرّح بذلك، وإنّما كان بغاية الضّغط عليهم لإلزامهم بدفع الجزية لأنّ هؤلاء، وخلافا لبني تغلب، كانوا قد قاتلوا في معركة اليرموك إلى جانب الرّوم ضدّ المسلمين[٦٠]، فليس من المعقول أن يحصلوا على امتياز ما. ولمّا لحق جبلة وقومه بحلفائهم في بيزنطة "ندم عمر على ما كان منه في أمره"[٦١]. أي أنّه، ومن أجل أنْ يُقرّهم في ديارهم لكونهم عربا، كان على استعداد لتحقيق طلبهم بإعفائهم من دفع الجزية وتعويضها بالصّدقة المضاعفة، ولم يكن في حقيقة الأمر يفضّل جلاءهم والتحاقهم بسلطان الرّوم. إلاّ أنّ الأمور جرت على غير ما توقّع. وهذا يدفعنا إلى استنتاج مفاده أنّ عمر قد أخذ في حسبانه أيضا انتماء نصارى بني تغلب للعرب ليمنحهم هذا الامتياز الضرّيبي.

لقد عقد الخليفة مع نصارى بني تغلب صلحًا ضمن لهم أن يحفظوا دينهم وألاّ يدفعوا جزية؛ وقبلوا بشروط عليهم وهي أن تؤخذ منهم ضعف الصّدقة المفروضة على المسلمين، وألاّ يُنَصرِّوا أبناءهم[٦٢]. وقبل النّظر في مضمون ما اُتُّفق بشأنه لا بدّ أن نشير إلى أنّ مصادرنا لا تتحدّث عن عهد ذمة عُقد بين طرفين. فعهود الذّمة التي عُقدت من قبل معروفةَ الشرّوط، بيّنة الفصول؛ وهي وإنْ كانت تضمن لأهل الكتاب جملة من الحقوق، فإنّها تجعل منهم طرفا مغلوبًا على أمره ملتزمًا بما يفرضه عليه القويّ[٦٣]. لكنّ مصادرنا تتحدّث عن صلح أُبرِم بين عمر بن الخطّاب من جهة ونصارى بني تغلب من جهة ثانية، صلحٍ ضمن للطّرف الذي يُعتقد أنّه ضعيف الحفاظ على مكاسب معتبرة وإن اضطرّ إلى تقديم بعض التنازلات. ثم إنّ البعض كان وقتئذ يعي تماما مثل هذه المسألة، فقيل إنّ هؤلاء "ليست لهم ذمّة"[٦٤]. ولئن أورد البلاذري عبارة ذمّة على لسان الخليفة علي بن أبي طالب متوعّدًا نصارى بني تغلب الّذين أخلّوا بأحد بنود الصّلح، فإنّ هذه العبارة لم ترد لا على ألسنة غيره من أولي أمور السّياسة من خلفاء وأمراء، ولا على ألسنة الفقهاء أصحاب النّظر والرّأي في أمور الدّين. وهذا يعني أنّ الخليفة الذي كان منشغلا بالفتنة الدّاخليّة التي جدّت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفّان، لم يجد فرصة سانحة تتيح له إنجاز فتحٍ ما لصالح الدّولة النّاشئة ويحقّق بذلك لسلطانه مكاسبَ سياسيّة وعسكريّة ودينيّة؛ فإنْ صحّ ما نُسب إليه بشأن هؤلاء فإنّ ذلك ليس أكثر من إسقاط وَضْعِ نصارى بني تغلب على وَضْعٍ آخر يشبهه ويشمل بقيّة أهل الذّمّة، وهو إسقاط اقتضته نبرة التّوعّد التي أطلقها الطّموح وكبّلتها الصّعوبات المتمثّلة في أحداث الفتنة[٦٥].

لقد ذاد نصارى بني تغلب بحماسة عن موقفهم، وتمكّنوا من تثبيت الاعتراف بهم مع تأكيد اختلافهم بل قل تمايزهم عن باقي الملل الموجودة في الفضاء الإسلامي: أوّلا اختلافهم عن المسلمين بصفتهم نصارى، وهذا اختلاف ذو طبيعة دينيّة؛ وثانيا تمايزهم عن النّصارى واليهود والصّابئة لكونهم خلافا عنهم لا يُؤدّون الجزية التي قبل بها هؤلاء. وهذا تمايز يتّصل بوضعهم "القانوني" نجحوا في إقناع دولة المدينة بقبوله. ويبدو أنّ العرب المسلمين اقتنعوا، وإنْ على مضض، بمثل هذا الوضع الخاص الذي تمتّع به هؤلاء العرب النّصارى داخل الدّولة. ثمّ إنّ رفض دفع الجزية للعرب المسلمين له خلفيّة قبليّة وسياسيّة يمكن للنّاظر اكتناهها بيسر. فالجزية تُؤدّى مقابل توفير الحماية لدافعيها[٦٦]، ممّا يعني القبول بسلطة سياسيّة عليا تحتكر لنفسها سلطة القهر المادّي. لذا لم يكن نصارى بني تغلب مستعدّين لمثل هذا الخضوع السّياسي الّذي حاول أن يفرضه عليهم عربٌ توحّدهم بهم اللّغة والتّاريخ الطّويل، وتجمعهم بهم قيم مشتركة عديدة؛ ولكن تفرّقهم العصبيّة القبليّة.

أضف إلى ذلك، وهذا ما لم ينتبه إليه من سبقنا من الباحثين، أنّ العهد الّذي التزموا به تجاهل تماما شروطا أخرى كانت تُفرَض على الذّمّيين ومنها ألاّ يركبوا الخيل وألاّ يحملوا السلاح. وهذا لم يكن يسري على بني تغلب. مما يوحي بإقرار ضمني بأنْ يحتفظوا بشوكتهم الّتي من المرجّح أنْ يكونوا قد فاوضوا من أجلها والتزموا بألاّ يُوَظّفوها ضد الدّولة، ويشي في نفس الوقت باعتراف لهم بحقوق أخرى تجعلهم على قدم المساواة مع المسلمين. فكيف لهم بصَغار الجزية ومن أصلابهم رجال وفرسان أولوا بأس شديد يذودون عنهم ويحمون حماهم[٦٧]. إنّهم ببساطة لم يكونوا في حاجة لمثل هذه السّلطة التي ستسلبهم مقوّمًا من مقوّمات قوّتهم واستقلاليتهم. وهذا يتجلّى فيما ظلّوا عليه حتّى بعد قبولهم ببنود الصّلح الذي أبرموه مع عمر وبعد عودتهم إلى ديارهم. ولذلك وصفهم الطبري بكلام قد يبدو للوهلة الأولى عامّا ولكنّ ما من شكّ في عمق دلالته. فقال: "وكان في بني تغلب عزّ وامتناع، ولا يزالون ينازعون الوليد"[٦٨]. ولا يعني الامتناع المشار إليه عدم وفائهم بدفع الصّدقة مضعّفة؛ وإنّما يتعلّق الأمر على ما يبدو بنقطة أخرى من بنود الصّلح تتمثّل في مواصلتهم تنصير أبنائهم، وهذه سنعود إليها. كما هدّد علي بن أبي طالب في فترة خلافته بتقتيل مقاتلة بني تغلب لأنّهم، حسب رأيه، قد نقضوا العهد وبرئت منهم الذّمّة[٦٩]، وهذا دليل صريح على أنّهم احتفظوا بما لديهم من قوّة عسكريّة زمن خلافة عمر وبعده. ثمّ وظّفوا هذه القوّة للدّفاع عن أنفسهم ولصدّ غارات أعدائهم من القبائل العربية الأخرى خلال الثّلث الأخير من القرن السّابع الميلادي. فأثناء الاضطرابات الدّاخلية التي شهدتها الدّولة الأمويّة في تلك الفترة، اشتدّ الصرّاع في الجزيرة الفراتيّة بين القيسيّة الذين وقفوا إلى جانب عبد الله بن الزّبير (ت. سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢م)، وقبيلة تغلب التي ساندت العائلة الأمويّة وناصرت بصفة خاصة عبد الملك بن مروان (٦٦-٨٦ هـ/٦٨٥-٧٠٥)[٧٠]. وسجلت كتب الأخبار عدّة وقائع تارة كانت الغلبة فيها لتغلب وطورا كان النّصر فيه حليفا لقيس. ولقد كان التّعصّب إلى القبيلة أقوى من مفعول الانتماء الدّيني بدليل وقوف المسلمين من تغلب إلى جانب أبناء قبيلتهم من النّصارى في صراعهم ضدّ أعدائهم[٧١].

إذن، لمّا كان لا بدّ من اتّفاق يرضي الطّرفين، نجح هؤلاء النّصارى في الانعتاق من الجزية التي كانت على وشك أن تُفرَض عليهم، وثبّتوا الاعتراف بكيانهم على الوجه الذي راموا، فعدلوا عندئذ عن التّهديد بمغادرة ديارهم للّحاق بالرّوم. ونجح عمر بفضل واقعيّته السّياسيّة في فرض صدقة مضعَّفة لا شكّ أنّه رأى فيها مخرجا يحفظ جانبا من أحكام الدّين[٧٢]. أمّا هم فقد وجدوا في الصّدقة ما يحفظ الكرامة، فهي في حكم القرآن الذي لا يعوزه البيان فرضٌ على المال وليست على الرّقاب[٧٣]؛ وهذا بحدّ ذاته مكسب عسر مناله ولم يتحقّق إلاّ بعد مفاوضات. وربّما أنّهم وجدوا في البيان ما يُطمئن النّفوس، إذ بإمكانه أنْ يوحيَ بأنّ العبء الثّقيلَ صار هيِّنًا. جوهر القول أنّهم قبلوا بأداء الصّدقة مُضعّفة على ما تنتجه الأرض التي يملكونها، وعلى ما لديهم من مواشي. أي أنّهم يؤدّون على مقوّمين أساسيين من مقوّمات اقتصادهم، الزّراعة وتربية الماشية[٧٤]. ولم يكن عمر ليتأخّر عن الشّروع في تطبيق بنود الصّلح فأرسل بعد ذلك أحد موظّفيه وهو زياد بن حُدَيْر الأسدي إلى نصارى بني تغلب رأسًا ليأخذ منهم نصف العشر[٧٥]. وتلك مناسبة لتأكيد فرض شكل من أشكال سلطانه عليهم من جهة،

ولاختبار مدى جدّية التزامهم من جهة ثانية. ولم تشر المصادر إلى أيّ شكل من أشكال التّبرّم من تلك الصّدقة لمدّة قرن ونصف قرن من تاريخ عقد الصّلح، فلا شكّ أنّ بني تغلب قد أوفوا غير مُستضعفين بما التزموا طيلة تلك الفترة[٧٦].

ولقد وجد بعض العرب المسلمين في أنفسهم غضاضة بشأن نصارى بني تغلب بعد أن عُقد معهم هذا الصّلح، أو قل لم يجدوا في الصّلح ما يرضي كبرياءهم؛ وهذا يعني ظهور موقف مكابر ومتشدّد إزاء ما ذهب إليه الخليفة وارتضاه، ولكنّه لم يكن معلَنا بالصرّاحة المرجوّة بالنّظر إلى عمر بصفته أميرا للمؤمنين، وبالنّظر إلى قوّة شخصيّته ومكانته عند الصّحابة. في هذا الصّدد يبدو عبد الله بن العبّاس (ت. ٦٨هـ/٦٨٦م) كمن تزعّم هذا التّوجّه الرّافض لمضمون الصّلح، أو على الأقل الرّافض لبعض فصوله. فقد قال بحسب ما أورده البلاذري: "لا تُؤكل ذبائح نصارى بني تغلب ولا تُنكح نساؤهم، ليسوا منّا ولا من أهل الكتاب"[٧٧]. وكأنّه يرى أنّ الصّلح منقوص من بعض الفصول التي كان من الضرّوري التّأكيد عليها لحظة عقده. فصل القول أنّ موقفه يُخرج بني تغلب من دائرة الملل التي تتّبع ديانات سماوية، والتي تُبيح تبادل الزّيجات بينها، وتحلّل أكل ذبائح بعضها البعض. أمّا هؤلاء فلا هم بالمسلمين، ولا هم بالكتابيين. بمعنى أنّهم بحسب نفس التّوصيف مشركون كغيرهم من المشركين؛ ومع ذلك هم يعيشون بين ظهراني المسلمين. من الجليّ أنّ ذات الموقف لا يعترف بالوضع الّذي أُقرّ لنصارى بني تغلب، ويستنهض في النّفوس رغبة في القيام بالجهاد ضدّ هؤلاء الكفّار، ولكنّه كان يصطدم بما أقرّه الخليفة. ثم إنّ عمر بن عبد العزيز (٩٨-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م) رفض الصّدقة المضعّفة عليهم وهدّدهم بحرب إنْ لم يدفعوا الجزية[٧٨]. ولم يكن هذا الموقف موجّها ضدّهم بشكل مخصوص، وإنّما هو جزء من بعض الإجراءات التي انتهجها الخليفة ضدّ جميع أهل الذّمة في الدّولة الأموية[٧٩]. لكن بسبب عدم طول فترة خلافته يبدو أنّ عمر بن عبد العزيز لم يتمكّن من تنفيذ تهديده، ولم يقدر على إلزامهم بغير الصّدقة المضعّفة.

ثم إنّ الفقهاء من بعدُ بادروا بالنّظر في موضوع الصّدقة المضعّفة، فقدّموا تفسيرا هو أقرب إلى التّبرير؛ وكأنّهم يرفعون عن السّلطة المركزيّة حرجا لازمها طيلة قرون لاحقة بسبب قرار عمر لمّا أسقط عن هؤلاء النّصارى ما فرضه عليهم القرآن، واقتدى به من جاء من بعده. وليس أدلّ على هذا من ذاك السّؤال الذي حيرّ الخليفة العبّاسي هارون الرّشيد (١٧٠-١٩٣ هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م) بشأن مضاعفة الصّدقة عن هؤلاء وإسقاط الجزية عن رؤوسهم، فطلب من أبي يوسف يعقوب الجواب الشّافي[٨٠]. عموما قال جميع فقهاء القرون الأولى للإسلام: "إنّ سبيل ما يؤخذ من أموال بني تغلب سبيل مال الخارج، لأنّه بدل من الجزية"[٨١]. ثمّ قيل في فترة لاحقة: "فالمأخوذ منهم جزية، غير أنّه على غير صفة جزية غيرهم"[٨٢]. وهذا القول الأخير ليس أكثر من توصيف يرضي المسلمين ونصارى بني تغلب على حدّ السّواء.

يذكر كل من ابن سعد والطبري أنّ وفدا من تغلب جاء إلى الرسول محمد (ﷺ) وفيه رجال مسلمون وآخرون نصارى، فأقرّ النّصارى على دينهم واشترط عليهم "ألاّ يصبغوا أولادهم على النّصرانية" بحسب عبارة ابن سعد[٨٣]. لكنّ للباحث ألاّ يقبل بهذه النّقطة من رواية المصادر، فالرسول محمد (ﷺ) كان قد أقرّ مجموعات أخرى من أهل الكتاب على دينهم دون أن يشترط عليهم أن يجعلوا أولادهم مسلمين[٨٤]. يبدو إذن أنّ الشرّط المشار إليه هو ممّا دُسّ لاحقًا في الرّوايات الشّفويّة قبل أن يُدوَّنَ في المصادر حتّى يُظنّ أنّ ما اشترطه عمر بن الخطاب بشأن عدم تنصير صبية بني تغلب ليس إلاّ اقتداء بالرّسول (ﷺ). من المؤكد أنّ هذا البند المذكور في الصّلح هو ممّا اتُّفق عليه مع الخليفة[٨٥]. وأنّه وجد فيه أهمّ مكسب ذي طابع ديني قد تمكّن من تحقيقه، ممّا جعله يعفيهم من دفع الجزية؛ فالقوم سيسلمون جميعا بمرور الزّمن بحسب ما كان يُتوقّع، وسيجني تبعا لذلك ثمار قراره على المديَيْن القريب والمتوسّط لا أكثر، كما كان مُنتظرًا أيضا. ولا شكّ أنّ كلّ ذلك قد ترك في نفسه وفي نفوس المؤمنين أثر الإحساس بالرّضا عن نصر سياسي قد تحقّق، وعن فتح مؤجّل إلى حين.

ورغم أنّ ظاهر هذا الشرّط يسلب بني تغلب الحريّة في كيفيّة تربية أبنائهم ويُلزمهم بتنشئتهم على الإسلام، إلاّ أنّهم قبلوا به ليس لكونه دون كلفة ماديّة فحسب، وإنّما أيضا لوعيهم بأنّ ظاهره عليهم وباطنه لهم بما أنّه يضمن أنْ يظلّ مصير صبيانهم بين أيديهم. أي أن ينشئوهم على النّصرانية دون أن يتيسرّ للخليفة أو لعماله مراقبة مدى التزامهم بذاك الشرّط لأنّ الفرد قد لا يُظهر حقيقة المعتقد الذي يبطنه. في واقع الأمر لم يلتزم بنو تَغلب منذ البداية بتنشئة أولادهم على الإسلام[٨٦]. وهذا ما تشهد به بعض النّصوص العربية التي تنضح عباراتها غضبًا وتهديدًا. فقد روي عن علي بن أبي طالب قوله: "لئن تفرّغت لبني تغلب لَيكوننّ لي فيهم رأي، لأقتلنّ مقاتلتهم ولأسبينّ ذريّتهم فقد نقضوا العهد وبرئت منهم الذّمة حين نصرّوا أولادهم"[٨٧]. ممّا يعني أنّه لم يكن مُعترضًا على مضمون الصّلح بقدر ما كان مُعترضًا على نقض أي بند من بنوده. ويُلاحَظُ كذلك أنّ هذا الصلح لم يتعرّض إلى شَرط أساسي من الشرّوط التي كانت تُفرَض على أهل الذمة والمتمثّل في تحجير بناء الكنائس، وهذا مردّه ما تُوُقِّعَ أن تؤول إليه الأمور على المستوى الدّيني، أي أن يسلم الجميع مع مرور الزّمن ولن تكون هناك حاجة لمثل دور العبادة هذه. ولكنّنا نعثر في بعض المصادر السرّيانية على إشارات متكرّرة إلى أسماء أساقفة العرب في الجزيرة الفراتيّة، وأحيانا يُشار إلى بعضهم بعبارة "أسقف التّغالبة" وذلك إلى حدود القرن الرّابع الهجري لمّا تراجع الحضور المسيحيّ العربيّ في هذه المنطقة. خلال تلك الفترة، كان للمسيحيين التّغالبة أبرشية خاصة هي الأبرشية السرّيانية الغربية (أي اليعقوبية)، وهي توجد في إقليم عانة على الفرات، وتتّبع مفريان تكريت[٨٨].

لم يُكرَه هؤلاء النصارى على اعتناق الإسلام إلا في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٥-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥)[٨٩]. فقد قتل "زعيم التّغالبة المدعو موعد" بعد أن هدّده وأغراه ولكنه لم يذعن. كما عذّب من بعده "إسماعيل التّغلبي" ولكنّه أصرّ بدوره على البقاء على دينه قائلا للخليفة: "أنّ ما يخيفني وأنا زعيم التّغالبة كما قلتَ هو خشيتي أن أكون سببًا في هلاك الكثيرين"[٩٠]. نفهم إذن من هذه الرّواية تمسّكهم بدينهم حتّى في أحلك الظّروف، ونستنتج دون عناء أنّ ما اشترطه عليهم الخليفة عمر بن الخطاب كان دون تأثير واقعي، فلولا تنشئتهم لصبيانهم على النّصرانيّة لما تواصل وجود هذه المجموعات العربيّة غير المسلمة بالجزيرة الفراتيّة خلال القرون اللاحقة[٩١].

قد تكون السّلطة المركزيّة التزمت لفترة طويلة ببنود الصّلح المبرم مع نصارى بني تغلب، وخاصة بالبند المتعلّق بمضاعفة الصّدقة. لكن تطالعنا المصادر السرّيانيّة بأخبار ترقى إلى منتصف القرن (الثاني الهجري/ القرن الثّامن الميلادي)، ثم تتواتر منذ بداية القرن (الثّالث الهجري/ القرن التّاسع الميلادي)، مفادها أنّ المجموعات المسيحيّة في الجزيرة وبلاد الشّام، والتي من بينها بني تغلب، كانت تعاني من سياسة ضريبيّة مجحفة قد فرضها عليها الخلفاء، وغالى في تطبيقها الولاّة والعمّال وجباة الضرائب؛ بل والأشدّ في الأمر أنّه كثيرا ما كانت تُفرَض عليهم عدّة إتاوات عشوائيّة طالت الأرض والزّرع والضرّع والتّجارة والصّنائع وغير ذلك[٩٢]. وهذا يعني أنّ المسلمين لم يكتفوا بمضاعفة الصّدقة على نصارى بني تغلب بل عمدوا في فترة لاحقة إلى تطبيق سياسة ضغط ضريبيّ على جميع غير المسلمين. فربّما لا يشير قول الفقهاء بأن المسلمين أغلظوا على بني تغلب إلى مضمون الصّلح المذكور فحسب، وإنّما يعني فيما يعني هذا التّنكيل الجبائي الذي ضاق به جميع أهل الكتاب ذرعًا[٩٣].

## ثالثًا: لجوء بني حُبَيْب إلى بيزنطة وتحالفهم مع الرّوم ضدّ العرب المسلمين

مع مرور الزّمن تحوّل ما كان ظرفيًّا عابرا مرتبطا بجشع بعض عمّال الجباية إلى سياسة ضريبيّة جائرة وممنهجة ضدّ سكان الجزيرة شهد بقسوتها وبتأثيراتها الكارثيّة حتّى المسلمون. فقد ذكر ابن حوقل (ت. بعد سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م) جوانب من هذه السّياسة التي اتّبعها أمراء بني حمدان المنحدرين من إحدى عشائر بني تغلب والّذين اتّخذوا من الموصل قاعدة لحكمهم[٩٤]، ووصف تأثيرها الخطير على الأوضاع الدّيمغرافيّة لتلك المنطقة. وبينّ أنّها دفعت ببني حُبَيْب، وهم أيضا قوم من تغلب وبصفة أدقّ هم بنو عمّ بني حمدان[٩٥]، إلى أن خرجوا من نصيبين "بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم في نحو عشرة آلاف فارس،" ودخلوا بلاد الرّوم في سنة (٣٢٩هـ/ ٩٤١م)، "فتنصرّوا بأجمعهم"[٩٦]. لا يمكن للباحث أن

يطمئنّ كلّ الاطمئنان إلى هذه الإشارة الأخيرة، إذ ليس من المعقول ألاّ تثير لديه بعض الأسئلة.

فهل أنّ هذه المجموعة من بني تغلب كانت قد اعتنقت الإسلام في مرحلة سابقة لمّا كانت تعيش في الجزيرة بين ظهراني المسلمين دون أن تصلنا أخبارهم؟ إنْ كان الأمر كذلك فربّما تمّ بشكل تدريجي وبمفعول الاحتكاك اليومي بالمسلمين، وهو ما لم يكن على الأرجح يسترعي اهتمام المصادر. فبإمكان الباحث أن يستنتج أنّ عشيرة بني حمدان التّغلبيّة كانت قد اعتنقت الإسلام منذ ما قبل القرن الرّابع الهجري، وإنْ في فترة يصعب تحديدها، وربّما كان ذلك في عهد الخليفة العباسي المتوكّل (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م) الذي اتّبع سياسة متشدّدة تجاه النّصارى وغيرهم من أهل الذّمّة[٩٧]. وقد نجحت هذه العشيرة فيما بعد في فرض سلطانها على بلاد الجزيرة[٩٨]. وإذا افترضنا أنّ بني حُبَيْب قد اعتنقوا الإسلام، فلربّما تمّ ذلك أيضا في ظلّ سياسة التّشدّد آنفة الذّكر والتي تَمثّلَ أحد وجوهها في فرض ضريبة العشر على منازل جميع النّصارى إضافة إلى ما كانوا يدفعونه من ضرائب أخرى[٩٩]. وهذا يدفعنا إلى ترجيح فكرة أنّهم اضطرّوا إلى إعلان إسلامهم بسبب الضّغط الجبائيّ الذي سُلِّط عليهم فيما بعد خارج شروط الصّلح الذي عقده أسلافهم مع عمر، أو على الأقلّ زعموا أنّهم بدّلوا دينهم اتّقاء السّياسة المتشدّدة التي انتهجها بعض الخلفاء، وكذلك اتّقاء تسلّط الجباة وما أبدوه تجاههم من مغالاة وجشع. وبما أنّ سياسة التّنكيل الجبائي التي انتهجها أولو الأمر لم تقتصر على غير المسلمين من الرّعيّة بل طالت أحيانا المسلمين أنفسهم[١٠٠]، فإنّ بني حُبَيْب لم يجدوا عندئذ بديلا عن ترك موطنهم واللّجوء إلى بيزنطة المجاورة حيث صدحوا بنصرانيتهم بمجرّد أن صاروا يعيشون جنبا إلى جنب مع مسيحيي الإمبراطوريّة، وتحت أنظار سلطاتها الرّسميّة المسيحيّة.

لكن يمكن أن نفترض أنّ ما قاله ابن حوقل بشأن اعتناق بني حبيب النّصرانية بعد هروبهم من دار الإسلام هو مجرد ادّعاء استهدف به بني حمدان أمراء الجزيرة والشّام في ذلك الوقت وخاصة منهم ناصر الدّولة الحسن بن عبد الله بن حمدان وولده من بعده أكثر ما استهدف به بني حُبَيب أنفسهم[١٠١]. فهذا الجغرافي الذي لم يخف يضمره من كراهيّة لهؤلاء الأمراء لِمَا سبّبوه من خراب في موطنه نصيبين وفي كلّ المناطق التي كانت تحت إمرتهم، لم يكن أيضا يخف امتعاضه الشّديد من سياساتهم المتمثّلة في مصادرة أملاك النّاس بشكل تعسّفي، وفي فرض شتّى أنواع الضرّائب على ممتلكاتهم، بل والزّيادة في قيمتها دون ضوابط ودون مراعاة للظّروف[١٠٢]. فكان يريد على الأرجح التّشنيع على هؤلاء الأمراء ويصوّرهم لا في صورة من دفعوا بتعسّفهم وظلمهم النّاس إلى الهروب من بلاد الإسلام والارتماء في أحضان العدوّ فحسب، لأنّ هذا أمر واقع وغير مخفي، وإنّما أيضا في صورة من تسبّبوا في ردّة إخوانهم عن دينهم وإقبالهم على اعتناق النّصرانية.

إذن، فالغالب على الظّنّ أنّ بني حبيب ظلّوا على نصرانيتهم ولم يتخلّوا عنها طيلة الفترة السّابقة حتّى وإنْ زعموا أنّهم اعتنقوا الإسلام، كما افترضنا سلفا[١٠٣]. ثم أنّهم اضطرّوا بعد أكثر من ثلاثة قرون إلى مغادرة دار الإسلام بسبب وطأة الضرائب ومصادرة الممتلكات، وخيّروا اللجوء إلى بيزنطة المسيحيّة قناعة منهم بأنّ رابطة الدّين تتيح لهم على الأقلّ أرضية ملائمة للعيش هناك. وهكذا حقّقوا ما كان قد هدّد به أجدادهم دون أن تلتفت السّلطة المركزيّة هذه المرّة إلى قضيّة استبقائهم في موطنهم. لكنّ ذلك لا يمكن أن ينفي تماما وجود عدد من المسلمين الذين هربوا إلى بلاد الرّوم بسبب تلك الظّروف ثم تنصّروا هناك. فالمصادر تخبرنا أنّ هناك من النّصارى من كانوا يعتنقون الإسلام بمحض إرادتهم، ثم بعد مدّة يعودون إلى نصرانيتهم فيُكرَهون عندئذ على الإسلام[١٠٤]. لذا ربّما كان البعض منهم يلتجئُ إلى بلاد الرّوم ليعود إلى نصرانيّته دون إكراه. فمثل هذه الأمور كانت تحدث من حين إلى آخر في صفوف سكّان المناطق المتاخمة لبيزنطة، من ذلك أنّ بعض البيزنطيين اختلفوا مع بعض الأباطرة ثم التجؤوا إلى بلاد المسلمين واعتنقوا الإسلام[١٠٥]؛ وأنّ بعضهم الآخر التجؤوا إلى بلاد الإسلام لكونهم أُضطُهِدوا دينيًّا من قبل السّلطة المركزيّة البيزنطيّة التي يخالفونها في العقيدة[١٠٦]. لذا ربّما يكون ابن حوقل قد استغلّ تنصرَّ بعض المسلمين الفارّين ليبالغ في تصوير الأمر، مجملاً القول وغاضًّا البصر في نفس الوقت عمّن هرب إلى بلاد الرّوم من النّصارى.

لا يمكن أن نفسرّ لجوء بني حُبَيْب إلى بلاد الرّوم بما كانوا يعانونه من ضيم ضريبي فحسب. لقد استفادوا أيضا من سياق تاريخيّ مخصوص تميّز بالضّعف العسكريّ الذي كانت تعاني منه الدّولة العبّاسيّة، وبعدم قدرتها على الصّمود في وجه الحملات العسكريّة الّتي شنّها الأباطرة البيزنطيون وكبار قادة العسكر على المناطق الحدوديّة الممتدّة بين الجارين. ورغم بروز سيف الدّولة الحمداني في شمال بلاد الشّام والجزيرة (٣٣٣-٣٥٦ هـ/٩٤٤-٩٦٧م) كأمير متحمّس للحرب جاهد في صدّ العدو[١٠٧]، إلاّ أنّه لم ينجح في الوقوف أمام الطموحات التّوسّعيّة للبيزنطيين الّذين كانوا على معرفة دقيقة بعدم قدرة السّلطة المركزيّة العبّاسية على الدّفاع على ثغورها الشّمالية فتمكّنوا من السّيطرة على مدن ومناطق شاسعة كانت تابعة للمسلمين[١٠٨]. ممّا يعني أنّ موازين القوى العسكريّة قد مالت بشكل واضح لصالح بيزنطة. إذن، اختار بنو حُبَيْب الظّرف التّاريخي المناسب ليتركوا مواطنهم ويضعوا أنفسهم تحت السّلطة السّياسيّة والعسكريّة للطّرف القويّ، دون خشية أيّة ملاحقة قد يقوم به أسياد الأمس، إذ لم يعد للمسلمين الّذين تراجع نفوذهم ووهنت قوّتهم القدرة على التّأثير والنّكاية.

بعد أن دخل بنو حُبَيْب بلاد الرّوم، عملوا على كسب ثقة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السّابع (٩١٣-٩٥٩م) ونجحوا في ذلك؛ لاسيما وأنّ بيزنطة، وبسبب الحرب التوسّعية التي كانت تشنّها في تلك الفترة، كانت في حاجة إلى تعمير المناطق الحدوديّة التي هجّرت سكّانها المسلمين، ولم يكن لديها العدد الكافي من الرّعايا لتنفيذ هذا المشروع فوجدت في نصارى بني حُبَيْب وفي الأرمن ضالّتها[١٠٩]. لقد مكّن الإمبراطور بني حُبَيْب من ضياع خصبة استوطنوها، وأقرّهم في قرى غير بعيدة عن بلاد المسلمين، وأعطاهم المواشي[١١٠]. لا نجد في المصادر العربيّة مزيدًا من التّفاصيل حول هذه النّقطة، وفي المقابل تخبرنا المصادر البيزنطيّة أنّ البيزنطيين كانوا في تلك الفترة يمنحون للمتنصرّين الجدد من المسلمين، وخاصة المزارعين المستقرّين في مناطق قد سيطرت عليها بيزنطة، ثلاث "نوميزمات" ذهبية للشّخص الواحد، وستّة "نوميزمات" ذهبية لكلّ من يملك زوجًا من الثّيران لحراثة الأرض، وأربعة وخمسون مُدّا من القمح لبذر أرضه ولمؤونته وعائلته لمدّة سنة[١١١]. ويهدف هذا الإجراء إلى تشجيعهم كي يتشبّثوا بأرضهم فلا يغادرونها، وإلى كسب ولائهم فلا يظاهرون المسلمين ضدّ الأسياد الجدد.

انطلاقًا من موطنهم الجديد شرع بنو حُبَيْب في مكاتبة من خلّفوه في الجزيرة، لاسيما أولئك الّذين كانوا يعانون من الجور الضرّيبي الّذي سلّطه عليهم بنو حمدان، وأطمعوهم فيما وجدوه من مأوى وحظوة وتكريم لدى الإمبراطور الذي لم يكن ليُفوِّتَ على سلطانه هذه الفرصة، فنالوا منه ما نالوه من تأييد سياسي رسمي، وحصلوا منه على دعم بالمال وبالسّلاح. لذا لم يجد "كثير من المتخلّفين عنهم" بدّا من اللّحاق بهم، "وانتمى إليهم من لم يكن منهم"[١١٢]. وبما أنّ مصادرنا لم تبح بشيء بشأن هؤلاء المتخلّفين، فمن المرجّح أنّهم مجموعات ممّن ليسوا من نفس قبيلهم، وآخرون من النّصارى ومن الّذين لم يكونوا على دينهم، ولكنّهم كانوا جميعًا يرزحون تحت نير الضّيم الضرّيبي ووطأة مصادرة السّلطان لأملاكهم[١١٣].

وبعدما وجد بنو حُبَيْب ومن معهم موطئ قدم في بيزنطة واستيقنوا من صلابة الدّعم الّذي حصلوا عليه، "شنّوا الغارات على بلاد الإسلام" بحسب عبارة ابن حوقل، فسيطروا على عدد من الحصون المتاخمة كحصن منصور وحصن زياد[١١٤]. أي جعلوا ما كان تابعا لسلطان المسلمين تحت سلطانهم أولاً، ولكن تحت السّلطة السّياسيّة والعسكريّة البيزنطيّة العليا ثانيا. ثم أخذوا يغيرون على مناطق ومدن وحصون شمال العراق الواقعة تحت نفوذ بني حمدان، ولاسيما تلك المناطق التي صادر فيها هؤلاء الأمراء الضّياع والعقارات من أصحابها وصيرّوها ملكا لهم[١١٥]، فأنكوا في أهلها بالقتل والسّبي، وفي قراها وضياعها بالتّخريب وحرق أشجارها وزروعها "كل سنة عند أوان الغلاّت"[١١٦]. فالأرض التي لم يطيقوا البقاء على أديمها لجور سلطانها قرّروا ألاّ يهنأ له ولعمّارها بال، وألاّ يفيئوا بخيراتها. ممّا يعني أنّ بني حبيب قد انخرطوا هذه المرّة ضدّ بني عمومتهم في شكل من أشكال الصرّاع القبلي الذي يتخطّى الحدود، وهو صراع لا وجه ديني له وإنّما مداره الثّروة والنّفوذ. وسواء كانت غاراتهم على المجال الحمدانيّ بسبب رغبتهم في الثّأر منهم، وسعيًا لاسترداد أراضيهم وكذلك للتّوسّع، أو كانوا مدفوعين بواجب ردّ الجميل للبيزنطيين الّذين

أكرموا مثواهم، أو لكلّ هذه الأسباب مجتمعة في نفس الوقت، وهذا عندي هو الأقرب إلى الواقع، فإنّ الرّوم مَلَكًا ورعيّة قد وجدوا في غاراتهم ومن معهم على بلاد الإسلام ما يُثبت لهم أنّ القوم قد استيأسوا من سلطان المسلمين، وأنّهم أصبحوا يدينون لبيزنطة بولاء لا شائبة تشوبه، "فتزايدت ثقة الملك بهم والرّوم إلى أن جعلوا لهم الأرزاق والأعطية وصاروا خاصّة الملك"[١١٧].

يُفهم من طبيعة السّياسة المتّبعة تجاه هؤلاء أنّ العلاقة بين الطّرفين توطّدت بشكل كبير، والأهمّ من ذلك أنّها "تمأسست. "فالأرزاق هي مبالغ معلومة من المال تُصرَف من خزينة القسطنطينيّة بشكل دوري لمستحقّيها لقاء ما يقدّمونه من خدمات عسكريّة بالأساس. وهذا يستوجب القول بأنّ بني حُبَيْب الذين كانت لهم شوكة من حوالي عشرة آلاف فارس مجهّزين بمختلف أنواع أسلحتهم[١١٨]، قد انتظمتهم بيزنطة في شكل فرق عسكريّة وأقرّتهم في المقاطعات الشرّقيّة للإمبراطوريّة، وذلك خاصّة بعد أن استردّت من المسلمين مدينة ملطية الثّغريّة الحصينة سنة (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م)[١١٩]. أمّا الأعطية فهي على الأرجح مكافآت مختلفة القيمة والنّوع وغير منتظَمَة التّوزيع كانت تُسَلّم لهم. وقبل أن يمرّ وقت طويل أمكن للطّرفين توحيد خطة العمل العسكريّ، فحاربوا جميعا باسم الإمبراطوريّة عدوّا مشتركا. ولكن كان بنو حُبَيْب في مقدّمة العمليّات العسكريّة التي كانت تُشنّ ضدّ المناطق المجاورة من بلاد الإسلام لكونهم يعرفون مسالكها ومضايقها[١٢٠].

ثم أنّ الإمبراطور اتّخذ من بعض وجوههم خاصّتة[١٢١]. أي أنّ هؤلاء لم يُستَبْقوا في المنطقة الحدوديّة الشرّقية بعيدا عن العاصمة، بل نُقلوا إلى مقرّ السّلطة المركزيّة وأُدخلوا إلى البلاط الإمبراطوريّ ليكونوا باستمرار إلى جانب الإمبراطور. وهو إجراء من شأنه أن يرسّخ في نفوسهم وبقيّة أفراد عشيرتهم صلابة الاعتراف البيزنطيّ بهم، ويُثنيهم عن مجرّد التّفكير في إمكانيّة العودة إلى الوراء. وفي ذلك أيضا ما يشير إلى أعلى درجات الثّقة التي حازوا عليها والحظوة التي نالوها في القسطنطينيّة. فقد بلغوا من الإدماج في هياكل الدولة وفي المجتمع البيزنطي مبلغا رفيع الدّرجة، ومناقضا تماما لوضعهم تحت سلطة العرب المسلمين.

ولا شكّ أنّ الرّوم قد وجدوا في بني حُبَيْب ما يجمعهم بهم أكثر ممّا يفرّقهم عنهم. فلقد شكّلت النّصرانية رابطًا دينيًّا يوحّدهم رغم ما بينهم من فوارق مذهبية؛ وهي فوارق لم تكن حينئذ تشغل بال أباطرة بيزنطة أتباع النّصرانية الملكيّة بقدر ما كانت تشغلهم قضيّة تعمير المناطق الطّرفية البعيدة. ووجدوا في عدائهم لأمراء العرب وخلفائهم، وهو المعطى السّياسي، قاسما آخر مشتركا لا يقلّ قيمة عن غيره من القواسم. واستفادوا من قوّتهم العسكريّة فرفدوا بها جيشهم. إذن لم تكن عروبة بني حُبَيْب في نظر البيزنطيين عائقا يحول دون الاعتراف بهذه المجموعة اللاّجئة ثم إدماجها في مجتمعهم. لقد كانوا من هذا المنظور فحسب قومًا آخرين؛ ولكنّهم يماثلون من عدّة جوانب من آواهم: فمنذ قرون خلت، تنصرّ أجداد بني حُبَيْب بمفعول الاحتكاك برعايا الرّوم الذين اعتنقوا مذهب الطبيعة الواحدة وعمل بعضهم على نشره في مناطق ممتدّة خارج حدود بيزنطة، من بينها منطقة شمال العراق التي حلّت بها عدّة قبائل عربيّة تحت السّيطرة الفارسيّة[١٢٢]. ولعلّ هذا ما أشار إليه ابن خلدون عندما كتب: "وكانت النّصرانية غالبة عليهم لمجاورة الرّوم"[١٢٣]. وقد شهد هذا المذهب انتعاشه كبيرة في المشرق لاسيما لمّا اعتنقه الإمبراطور أناستازيوس (٤٩١-٥١٨م)[١٢٤]. ثم قبيل سيطرة العرب المسلمين على شمال العراق، عاش أجدادهم أيضا تحت سيطرة البيزنطيين فترة من الزّمن وتحالفوا معهم ضدّ الفرس مثلما أشرنا إلى ذلك سابقا[١٢٥]. ومن المرجّح كذلك أن يكون البعض منهم قد رطن برطانتهم. ولمّا انتشر الإسلام في الجزيرة الفراتيّة، تراجع الرّوم نحو آسيا الصّغرى وظلّ السّكان من هنا وهناك أجوارا رغم الحروب المتقطّعة الّتي كانت تدور بين المسلمين والبيزنطيين. إذن، لم يكن بنو حُبَيْب قومًا غرباء عن الروم، إنّهم نصارى كغيرهم من البيزنطيين، أصبحوا يعيشون بين ظهرانيهم، ويمشون في أسواقهم، ويأكلون من طعامهم. وسواء كانت المصلحة المشتركة هي الّتي دفعت إلى التّقارب، أو أنّ التّقارب هو الّذي ولّد المصلحة المشتركة؛ فإنّه لم يكن هناك من فارق جوهري وبارز بين الطّرفين إلاّ الفارق العرقي، ولم تكن عندئذ المقابلة بين عربي نصراني وروميّ نصراني ذات بال.

## خَاتِمَةٌ

فصل المقال فيما سبق وعالجنا أنّ نصارى بني تغلب انسلخوا عن الرّوم وتحالفوا ضدّهم مع العرب المسلمين أثناء فتح شمال العراق، ثمّ تمكّنوا من إقناع أولي الأمر من المسلمين بضرورة الاعتراف بهم لا بصفتهم أصحاب ديانة سماويّة أخرى، فتلك مسألة طبيعيّة تندرج ضمن باب الاعتراف بحقوق أهل الكتاب في البقاء على دينهم إن رغبوا في ذلك، بل والأهمّ من ذلك ألاّ يسري عليهم، نظرا لقوّتهم ولعروبتهم، ما كان يسري على أمثالهم من عهود الذّمة[١٢٦]. وبهذا اختلف وضعهم في نفس الوقت عن غيرهم من أهل الكتاب وعن المسلمين. ثمّ أنّه ونتيجة لسياسات ضريبية مشطّة مورست ضدّهم دون مراعاة لشروط الصّلح الذي كانوا قد عقدوه مع عمر بن الخطاب، اضطرّ بنو حُبَيْب – وهم بطن من بطون تغلب – إلى اللجوء إلى بلاد الرّوم؛ وهناك وجدوا الحظوة والدّعم ليس لأنّهم نصارى فحسب، وإنّما أيضا لكونهم قد أصبحوا – شأنهم في ذلك شأن الرّوم – خصوما للمسلمين المجاورين. ومع مرور الزّمن، يبدو أنّهم انصهروا تماما في المجتمع البيزنطيّ، فلم نعد نعثر لهم عن ذكر في المصادر.

## الاحالات المرجعية:

(١) أطلقت المصادر العربية على الجزء الشّمالي من العراق اسم "الجزيرة" لأنّها بين نهريْ دجلة والفرات، أو اسم "الجزيرة الفراتية" لأنّ روافد الفرات منتشرة في معظم مساحاتها، كما يحدّها هذا النّهر من الشّمال والغرب والجنوب. يُنظر: الحموي (ياقوت بن عبد الله)، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧، مج ٢، ص ١٣٤؛ ابن خلدون (عبد الرّحمان)، **تاريخ ابن خلدون**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٠، ج ٢، ص ٣٦. ؛ الكعبي (عبد الحكيم)، **الجزيرة الفراتيّة وديارها العربيّة (ديار بكر، ديار ربيعة وديار مضر): دراسة في التّاريخ الدّيني والسّياسي والاجتماعي قبل الإسلام**، دمشق، دار صفحات للدّراسة والنّشر، ٢٠٠٩، ص ٢٩-٣٠.

(٢) بنو تغلب بن وائل بن قاسط هم بطن كبير من بطون ربيعة كانت ديارهم بالجزيرة الفراتية فيما بين الخابور والفرات ودجلة، ويخرج الخابور من رأس العين ويصبّ في الفرات. وتُعرف هذه المنطقة بديار ربيعة وتضمّ سِنْجار ونَصِيبين. وقد هاجروا إليها في حدود نهاية القرن الخامس الميلادي من موطنهم الأصلي تِهامة في شبه الجزيرة العربية، وكانت لهم ضدّ إخوتهم من بكر بن وائل حروب طويلة. يُنظر : البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر)، **كتاب جُمل من أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٦، ج ٧، ص ٦١ ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج ٢، ص ٤٩٤ ؛ ابن خلدون، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٦. ؛ العايب (سلوى بالحاج صالح)، **المسيحية العربية وتطوّراتها من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي**، بيروت، دار الطّليعة، ١٩٩٧، ص ٤٨-٤٩ ؛ الكعبي، **الجزيرة الفراتية**، ص ٦٢ ؛

Nau (François), *Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie*, du VIIe au VIIIe siècle, Paris, 1933, pp. 13-15.

(٣) نخصّ بالذّكر: العايب (سلوى بالحاج صالح)، **تغلب بين المسيحية والإسلام، ٩-٢٣٥هـ/٦٣١-٨٥٠ م، دراسة في المسيحية العربية**، شهادة الكفاءة في البحث تحت إشراف هشام جعيط (عمل غير منشور)، كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ١٩٨٨؛ وكذلك مؤلفها: **المسيحية العربية وتطوّراتها**، مرجع سبق ذكره.

(٤) نذكر على سبيل المثال مقال الأطرقجي (رمزية)، "تغلب ودورها في التّاريخ"، **آداب الرّافدين**، ١٩٧٨، عدد ٩، ص ١٥١-١٨٠ ؛ وكذلك بعض الفقرات ذات العلاقة بهذا الموضوع في: المخزومي (صادق شاكر محمود)، **العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة في القرن الأوّل الهجري/السّابع الميلادي: بحث في جذور الفكر الإسلامي والممارسة التّاريخيّة**، النّجف، مؤسسة أديان للثقافة والحوار، ٢٠١٥، ص ١٦٠-١٨٢.

(٥) الطّبري (محمد بن جرير)، **تاريخ الرّسل والملوك**، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (ط ٢)، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٧، ج ٤، ص ٥١، ٥٤ ؛ البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر)، **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف للطباعة والنّشر، ١٩٨٧، ص ٢٣٦-٢٤٦ ؛ الواقدي (محمد بن

عمر)، **تاريخ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر والعراق**، تحقيق عبد العزيز فيّاض حرفوش، دمشق، دار البشائر، ١٩٩٦، ص ٧٢-٧٥ ؛ المنبجي (محبوب بن قسطنطين)، **كتاب العنوان**، تحقيق فازيلياف أ.، باريس، ١٩٠٩، ج ٢، القسم ٢، ص ٤٧٧ ؛ العلي (صالح أحمد)، **الفتوحات الإسلامية**، بيروت، شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر، ٢٠٠٤، ص ٢٧٧-٢٧٨ ؛ كينيدي (هيو)، **الفتوح العربية الكبرى: كيف غيّر انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه**، ترجمة وتقديم وتعليق قاسم عبده قاسم، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨، ص ١٣٦.

(٦) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٤ ؛ يُنظر أيضا : البلاذري، **فتوح**، ص ٢٣٧ ؛ العلي، **الفتوحات الإسلامية**، ص ٢٧٧ ؛

Theophanes Confessor, *The Chronicle*, Trans. By Cyril Mango & Roger Scott Oxford, Clarendon Press, 1997, p. 473.

(٧) هناك اختلاف حول نسب عُمَيْر بن سعد في رواية البلاذري، **فتوح**، ص ٢٤٤، ٢٥٠ ؛ وهو عمر بن سعد، ابن أبي موسى الأشعري في رواية الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٣.

(٨) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥ ؛ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، مج ٢، ص ٣٧٧-٣٧٨. حسب ما دوّنه ابن الأثير فإنّ الذي جعل الوليد على عرب الجزيرة هو أبو عبيدة. ورد اسم الوليد بن عقبة كاملا في: ابن خيّاط (خليفة بن خيّاط شباب العصفري)، **كتاب الطبقات**، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٧، ص ١١، ٣١٨.

(٩) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٣.

(١٠) ابن خيّاط، **الطّبقات**، ص ١٥٧.

(١١) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٣.

(١٢) بصرف النّظر عن النّقطة التي تتعلق بدور عمير بن سعد، فإنّ رواية البلاذري فيها من التّماسك ومن المعطيات ما أفادنا في هذا البحث. يُنظر : البلاذري، **فتوح**، ص ٢٤٩-٢٥٢.

(١٣) أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم)، **كتاب الخراج**، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنّشر، ١٩٧٩، ص ٧٤ ؛ ابن خيّاط، **الطّبقات**، ص ١١، ٣١٨.

(١٤) ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزّهري)، **كتاب الطبقات الكبير**، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ٢٠٠١، ج ٥، ص ٩٧ ؛ البلاذري، **فتوح**، ص ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٥ ؛ العلي، **الفتوحات الإسلامية**، ص ٢٧٧.

(١٥) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٤. حول سيطرة الرّوم على أجزاء شاسعة من شمال العراق خلال حكم الإمبراطور هرقل وتحالف عدة قبائل عربية مع الرّوم ضدّ الفرس ثم ضدّ المسلمين في الجزيرة الفراتية يُنظر مثلا : العلي، **الفتوحات الإسلامية**، ص ١٤٠-١٤١ ؛

Kaegi (Walter Emil), *Heraclius Emperor of Byzantium*, Cambridge, Cambridge University Press, 2003, pp. 156-191 ; Edwell (Peter), with contributions from Fisher (Greg), Greatrex (Geoffrey), Whately (Conor) & Wood (Philip), « Arabs in the conflict between Rome and Persia, Ad 491-630 », in *Arabs and Empires before Islam*, Edi. by Fisher (Greg), Oxford, Oxford University Press, 2015, p. 274.

(١٦) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٤، ١١٩-١٢١ ؛ يُنظر أيضا : الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٤.

(١٧) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ١١٩-١٢١. لا أوافق الباحث Simon Pierre في قراءته لنصّ الواقدي قوله أنّ بعض المسلمين من تغلب ومن إيّاد قد قاتلوا مع قبائلهم إلى جانب الرّوم. ينظر عمله :

Pierre (Simon), *Les Banû Taghlib dans les historiographies arabes et syriaques : la construction d'une figure des Arabes chrétiens*, Master 1 encadré par Françoise Micheau (travail non publié), Université de Paris 1-Panthéon Sorbonne, (travail non publié, s. d.), pp. 44-45.

(١٨) ابن سعد، **كتاب الطّبقات**، ج ١، ص ٢٧٣ ؛ الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٣٥-٣٦، ٥٥-٥٦ ؛ ابن الأثير، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٦٨.

(١٩) العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ١٣٧. ترى المؤرخة أنّ الأغلبيّة من بني تغلب تمسّكوا بنصرانيتهم.

(٢٠) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٧٧. أورد الواقدي عبارة "العرب المتنصّرة" على لسان أحد قادة الرّوم في الجزيرة. حول مشاركة نصارى تغلب في القتال ضدّ الرّوم يُنظر أيضا :

Al-Qāḍī (Wadād), « Non-Muslims in the Muslim Conquest Army in Early Islam », in *Christians and Others in the Umayyad State*, Edi. by Borrut (Antoine) & Donner (Fred M.), Michigan, Thomson-Shore, Dexter, 2016, p. 92.

(٢١) الأزدي (محمد بن عبد الله)، **كتاب فتوح الشّام**، تحقيق وليم ناسوَليس كلكتة، مطبعة بنتست مِشن، ١٨٥٤، ص ١٣٤-١٣٥ ؛

Kaegi, *Heraclius Emperor of Byzantium*, p. 219.

(٢٢) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٧٧. حول من بقي في شمال العراق من جيش الرّوم بعد الانتصار على الفرس في معركة نينوى يُنظَر :

Kaegi, *Heraclius Emperor of Byzantium*, p. 219.

(٢٣) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٤.

(٢٤) السّرياني (ميخائيل)، **تاريخ**، عرّبه عن السّريانية غريغوريوس صليبا شمعون، أعدّه وقدّم له غريغوريوس يوحنّا إبراهيم، ماردين، منشورات دار الرها، ١٩٩٦، ج ٢، ص ٣٠٢ ؛ المخزومي، **العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة في القرن الأوّل الهجري/السّابع الميلادي**، ص ١٧٩ ؛

Ducellier (Alain), *Chrétiens d'Orient et Islam au Moyen Age VIIe-XVe siècle*, Paris, Armand Colin/Masson, 1996, pp. 46-48.

(٢٥) كان عمر بن الخطاب والوليد بن عقبة يأملان في أن يعتنق بنو تغلب الإسلام. يُنظر: أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠-١٢١ ؛ الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥.

(٢٦) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٥.

(٢٧) نفس المصدر، ص ٦٥.

(٢٨) نفس المصدر، ص ٦٣-٧٥، ٨١-٨٤.

(٢٩) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥.

(٣٠) كان عمر بن الخطاب يأمل في أن يعتنق بنو تغلب الإسلام لأنهم عربا حتى بعد أن عقد معهم الصّلح وأرسل إليهم عامله زياد بن حدير ليأخذ منهم الصّدقة مضعّفة. ويظهر ذلك فيما نقله زياد عن عمر لمّا قال له :"إنّهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب فعلّهم يسلمون." يُنظر: أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠-١٢١.

(٣١) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠. قالوا لعمر بن الخطاب : نرضى بالصّدقة مضعّفة "ونحفظ ديننا."

(٣٢) حول تاريخ اعتناق بني تغلب النّصرانية على المذهب اليعقوبي يُنظر: العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ٦١-٦٥.

(٣٣) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠. نُذكّر هنا أنّنا نرى أنّ القائد الذي تولىّ أمر نصارى بني تغلب هو الوليد بن عقبة وليس سعد بن عمير الذي يذكره البلاذري.

(٣٤) نفس المصدر، ص ٢٥١ ؛ يذكر أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠، أنّه كانت بأيديهم أراضٍ يوم صولحوا. هذه الإشارات الواردة في المصادر تجعلنا لا نقبل بما ذهبت إليه بعض الدراسات التي ترى أنّ بني تغلب في الجزيرة الفراتيّة كانوا من البدو الرّحل. يُنظر مثلا:

Eddé (Anne-Marie), Micheau (Françoise) et Picard (Christophe), *Communautés chrétiennes en pays d'Islam*, Paris, SEDES, 1997, p. 32.

(٣٥) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٤. ذكر الواقدي أسماء من يقول أنهم أمراء بني تغلب كان قد اجتمع بهم الوليد بن عقبة أولّ مرة عندما توجّه إلى هذه القبيلة وهم : نوفل بن مازن والشّريد بن عاصم والأشجع بن وائل وميسرة بن عامر وحزام بن عبد الله وقارب بن الأصم. وذكر النّسّابة ابن حزم أنّ قائد بني تغلب أيام عمر بن الخطّاب هو حنظلة بن قيس بن هَوْبَر. يُنظر: ابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي)، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، (ط ٥)، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢، ج ٢، ص ٣٠٦؛ لكن يبدو أنّ روايته غير دقيقة، لأنّ النّسّابة الكلبي (ت سنة ٢٠٤ هـ/ ٨٢٠م) ذكر أنّ حنظلة بن قيس بن هَوْبَر هو قائد تغلب أيام عُمَيْر بن الحُباب وعُمَيْر هو قائد قبيلة قيس، وقد تزعّم القائدان الصّراع الذي دار بين القبيلتين في فترة حكم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وتمكّن حنظلة من قتل عُمَيْر. يُنظر: الكلبي (هشام بن محمد بن السّائب)، **جمهرة النّسب**، تحقيق ناجي حسن، بيروت، مكتبة النّهضة العربية، ١٩٨١، ج ٣، ص ٥٧١.

(٣٦) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥-٥٦.

(٣٧) نفس المصدر، ج ٤، ص ٥٤ ؛ الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٥ ؛ ابن الأثير، **تاريخ**، مج ٢، ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٣٨) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٤٩.

(٣٩) نفس المصدر، ص ٢٥٠ ؛ العايب، **تغلب بين المسيحية والإسلام**، ص ١٠٣ ؛ قدّم Pierre (Simon) ترجمة خاطئة تماما لعبارة "نائفون من الجزية" بجملة فرنسية تعني مقيمون بالجزيرة. يُنظر عمله:

Pierre (Simon), *Les Banû Taghlib dans les historiographies arabes et syriaques*, p. 72.

(٤٠) **القرآن الكريم**، سورة التّوبة، آية ٢٩ ؛ يُنظر بشأن هذه الآية : المقدسي (عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدامة)، **المُغني**، تحقيق رائد بن صبري بن أبي علفة، بيروت، بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٤، ج ٢، ص ٢٣٤٣.

(٤١) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١-٢٥٢. وردت في كلام علي بن أبي طالب إشارة إلى أنّ لبني تغلب مقاتلة.

(٤٢) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦.

(٤٣) نفس المصدر، ج ٤، ص ٥٥ ؛ يُنظر أيضا : ابن الأثير، **تاريخ**، مج ٢، ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٤٤) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٥، ١٢٨-١٣٠ ؛ العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ١٥٣.

(٤٥) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ١٢٨-١٢٩.

(٤٦) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦ ؛ الأطرقجي، "تغلب ودورها في التّاريخ"، ص ١٧٠.

(٤٧) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٧٦.

(٤٨) يُنظر مثلا : ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم الدّينوري)، **الإمامة والسّياسة المعروف بتاريخ الخلفاء**، تحقيق علي شيري، بيروت، دار الأضواء، ١٩٩٠، ج ١، ص ٢٣-٢٥. حول مكانة قبيلة قريش في الدّعوة الإسلامية وفي بناء دولة المدينة والفتوحات على مستوى الواقع وحتّى على مستوى المخيال القبلي يُنظر مثلا: الجابري (محمد عابد)، **العقل السّياسي العربي : محدّداته وتجلّياته**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠، ص ١٤٢، ١٥٠-١٥٢.

(٤٩) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦. كما ورد في الطبري أنّ عمر استشار أيضا بشأن بني تغلب علي بن أبي طالب، وقد أشار عليه كذلك بمضاعفة الصّدقة عليهم. يُنظر أيضا: العايب، **تغلب بين المسيحية والإسلام**، ص ١٠٣.

(٥٠) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠ ؛

Fattal (Antoine), *Le statut légal des non-musulmans en pays d'Islam*, Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1958, p. 274 ; Anver (M. Emon), *Relugiuos Pluralism and Islamic*

*Law : Dhimmīs and Others in the Empire of Law*, Oxford, Oxford University Press, 2012, p. 104.

(٥١) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦.

(٥٢) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠.

(٥٣) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب)، **تاريخ اليعقوبي**، قدّم له وعلّق عليه محمد صادق بحر العلوم، النّجف، المكتبة الحيدريّة، ١٩٦٤، ج ٢، ص ١٣٢.

(٥٤) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠.

(٥٥) القرشيّ (يحي بن آدم)، **كتاب الخراج**، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة- بيروت، دار الشّروق، ١٩٨٧، ص ١٠٧.

(٥٦) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠ ؛ الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥-٥٦ ؛ Fattal, *Le statut légal des non-musulmans*, p. 274.

(٥٧) ضاعف عمر بن الخطاب الصّدقة على قبيلتين عربيتين نصرانيتين وهما تنّوخ وبهراء، لكن المصادر لم تمدّنا بتفاصيل عن هذا الموضوع، ويُفهم من النّصوص أنّ ذلك تمّ قبل عقد الصلح مع نصارى بني تغلب. يُنظر: الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥ وقد ذكر العباد وتنّوخ ؛ الماوردي (علي بن محمد بن حبيب)، **كتاب الأحكام الدينية والولايات السلطانية**، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، الكويت، مكتبة دار ابن قتيبة، ١٩٨٩، ص ١٨٤ ؛ Anver, *Relugiuos Pluralism and Islamic Law*, pp. 103-105.

(٥٨) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠ ؛ البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠ ؛ المخزومي، **العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة في القرن الأوّل الهجري/السّابع الميلادي**، ص ١٦٢-١٦٣ ؛ العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ١٥٣-١٥٥. أوافق سلوى بالحاج صالح العايب قولها أنّ هذا الامتياز الممنوح لبني تغلب هو بسبب قوّتهم العسكرية، ولكن أختلف معها في قولها أنّه بسبب قدرتهم على تقديم خدمات عسكرية للدّولة الإسلامية.

(٥٩) ابن زنجَويه (حميد)، **كتاب الأموال**، تحقيق، ذيب فيّاض، المملكة العربيّة السّعودية، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلامية، ١٩٨٦، ج ١، ص ١٣١.

(٦٠) اليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ١٣١-١٣٢.

(٦١) نفس المصدر، ج ٢، ص ١٣٧. حول انتقال جبلة الغساني وقومه إلى بيزنطة يُنظر أيضا: Shahîd (Irfan), *Byzantium and the Arabs in the Sixth Century*, Vol. I, (Part 2) : *Ecclesiastical History*. Washington, D. C., Dumbarton Oaks Research Library and Collection, 1995, p. 948 ; Kaegi (Walter Emil), *Byzantium and the early islamic conquests*, Cambridge, Cambridge University Press, 1992, p. 171.

(٦٢) يُنظر بشأن مضمون هذا الصّلح : الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥-٥٦ ؛ البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠-٢٥١. الصّدقة المفروضة على المسلمين هي الزّكاة. يُنظر بشأنها وبشأن الصّدقة المفروضة على نصارى بني تغلب : أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ٧٦-٧٩، ١٢٠؛ المقدسي، **المُغني**، ج ٢، ص ٢٣٤٢ ؛ Fattal, *Le statut légal des non-musulmans*, pp. 36-37, 274-275 ; Gilliot (Claude), « Ṭabari et les chrétiens Taġlibites », in *Annales du département des études arabes*, (1991-1992), vol. 68, pp. 145-159.

(٦٣) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٢-١٢٨ ؛ الماوردي، **الأحكام الدينية**، ص ١٨١-١٨٦ ؛ الخربوطلي (علي حسني)، **الإسلام وأهل الذمّة**، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٦٥ - ٧٠ ؛ Ye'or (Bat), *The decline of Eastern Christianity under Islam : from Jihad to Dhimmitude : Seventh-Twentieth Century*, New Jersey, Associated University Presses, (7th printing), 2009, pp. 77-79, 121-128.

(٦٤) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١.

(٦٥) لم أعثر في المصادر التي اطّلعت عليها على ما يؤكد ما ذهب إليه Anver, *Relugiuos Pluralism and Islamic Law*, p. 104 عندما ذكر أنّ علي بن أبي طالب منع المسلمين من الزواج بنساء بني تغلب.

(٦٦) الماوردي، **الأحكام الدينية**، ص ١٨١ ؛ الخربوطلي، **الإسلام وأهل الذمّة**، ص ٦٨.

(٦٧) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٦٨) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦. المقصود هو الوليد بن عقبة.

(٦٩) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٧٠) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٧، ص ٦١، ٦٧، ٧٥، ٧٨.

(٧١) نفس المصدر، ج ٧، ص ٥٩-٨٠ ؛ ابن الأثير، **تاريخ**، مج ٤، ص ٩٥-١٠٢.

(٧٢) يُنظر بشأن واقعيّة عمر : Lecker (M.), « Taghlib b. Wā'il », in *The Encyclopaedia of Islam*, Leiden, Brill, New ed., 2000, vol. X, p. 92 ; Anver, *Relugiuos Pluralism and Islamic Law*, p. 104.

(٧٣) **القرآن الكريم**، سورة التّوبة، آية ٦٠ وآية ١٠٣.

(٧٤) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠ ؛ البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١. حول مختلف الرّوايات بشأن الصدقة المضعّفة يُنظر: العايب، **تغلب بين المسيحية والإسلام**، ص ١٠٣-١٠٥.

(٧٥) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠- ١٢١ ؛ البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٢.

(٧٦) في سنة ١٧١ هـ/ ٧٨٧ م قتلت تغلب روح بن صالح قائد الموصل وقد كان هارون الرّشيد قلّده جمع صدقاتهم، كما قتلت جماعة من رجاله. يُنظر: الأزدي (يزيد بن محمد بن إيّاس الأزدي)، **تاريخ الموصل**، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٦٨.

(٧٧) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠.

(٧٨) المقدسي، **المغني**، ج ٢، ص ٢٣٤٧.

(٧٩) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٨٣-٣٨٤ ؛ Theophanes, *The Chronicle*, p. 550.

(٨٠) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠.

(٨١) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٢ ؛ الأطرقجي، "تغلب ودورها في التّاريخ"، ص ١٧٢.

(٨٢) المقدسي، **المغني**، ج ٢، ص ٢٣٤١.

(٨٣) ابن سعد، **كتاب الطّبقات**، ج ١، ص ٢٧٣ ؛ الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥-٥٦ ؛

Fattal, *Le statut légal des non-musulmans*, pp. 21-22.

(٨٤) حول ما اشترطه النّبيّ محمد (ﷺ) على أهل نجران يُنظر: أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ٧١-٧٤ ؛ العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ١٣٣-١٣٧. اعتبرت رمزية الأطرقجي أنّ التّغالبة هم الذين اقترحوا هذا الحل على الرسول (ﷺ) تخلصا من الجزية، وهذا ما لا أوافقها فيه الرأي. يُنظر: الأطرقجي، "تغلب ودورها في التّاريخ"، ص ١٦٤.

(٨٥) ابن زنجَويه، **كتاب الأموال**، ج ١، ص ١٣١.

(86) Fattal, *Le statut légal des non-musulmans*, pp. 36-37.

(٨٧) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١-٢٥٢ ؛ المقدسي، **المغني**، ج ٢، ص ٢٣٤٧.

(٨٨) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ١٧٣، ٣٦٠، ٣٦٨، ٣٨٥، ٤٣٨ ؛ العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ٦١-٦٥، ١٧٢-١٧٥؛

Eddé, Micheau et Picard, *Communautés chrétiennes en pays d'Islam*, pp. 23-25.

(٨٩) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٧٦ ؛ العايب، **تغلب بين المسيحية والإسلام**، ص ٩٥-٩٦ ؛

Ye'or, *The decline of Eastern Christianity*, p. 88.

(٩٠) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٧٦ ؛

Ye'or, *The decline of Eastern Christianity*, p. 88 ; Pierre, *Les Banû Taghlib dans les historiographies arabes et syriaques*, p. 84.

(٩١) الخلّال (أبو بكر أحمد بن محمد)، **أحكام أهل الملل من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق سيّد كسروي حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤، ص ٧١ ؛ السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ١٧٣، 360، ٣٦٨ ، ٣٨٥، ٤٣٨ ؛ حول تواصل وجود هذه المجموعات العربية النّصرانية بالجزيرة الفراتيّة إلى القرن الرّابع الهجري يُنظر أيضا: العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ٢١٩-٢٢٢.

(٩٢) التّلمحري (ديونسيوس)، **تاريخ الأزمان**، ترجمة شادية توفيق حافظ، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨، ص ١٣٩-١٥٣، ١٦٥-١٧٤، ١٧٧-١٩٠، ٢١٣، ٢١٦، ٢٤٣ ؛ السّرياني، **تاريخ**، ج ٣، ص ٦٨-٦٩، ٧٥، ٨٠-٨١ ؛

Bar Šinaya (Mar Élie), *Chronographie*, éd. L.-J. Delaporte, Paris, Librairie Honore Champion, 1910, p. 111.

(٩٣) الخلّال، **أحكام أهل الملل**، ص ٦٩ ؛ التّلمحري، **تاريخ الأزمان**، ص ١٣٩-١٥٣، ١٦٥-١٧٤، ١٧٧-١٩٠، ٢١٣، ٢١٦، ٢٤٣.

(٩٤) ابن حوقل (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢، ص 191-193، 199.

(٩٥) نفس المصدر، ص ١٩١-١٩٩.

(٩٦) نفس المصدر، ص ١٩٢. أثناء تبيانها للأسباب التي أدّت إلى إضعاف المسيحيّة العربيّة وتشتّتها في الجزيرة الفراتيّة تعرّضت المؤرّخة سلوى العايب في بحثها إلى خبر، نقلته عن ابن حوقل، حول رحيل فريق من بني تغلب إلى أرض الرّوم، وعدّت هذا الرّحيل واحدا من تلك الأسباب. ولكن ما يدعو إلى الاستغراب هو أنّها قد غضّت الطّرف على نقطة هامّة من نفس الرّواية تتمثّل في قول ابن حوقل أنّ هؤلاء تنصّروا في بلاد الرّوم. يعني هذا القول كما أورده صاحب كتاب صورة الأرض أنّ الذين غادروا دار الإسلام من بني تغلب هم مسلمون وليسوا نصارى، ثم اعتنقوا النّصرانيّة خارج دار الإسلام. من هذا المنطلق لا يستقيم تفسير تشتّت المسيحيّة العربية برحيل مجموعة مسلمة عن ديارها. لكأنّ المؤرّخة أشكلت عليها هذه الرّواية ولم تجد في خبر اعتناق بني حبيب النّصرانية لمّا حلّوا ببلاد الرّوم ما يتّفق مع فكرتها فتجاهلته تماما وفضّلت نهج الانتقاء الذي قد يطمس جانبا من "الحقيقة التاريخية." يُنظر: العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ٢٢١. حول انتقال بني حبيب إلى بيزنطة يُنظر أيضا:

Canard (Marius), *Histoire de la dynastie des H'amdanides de Jazîra et de Syrie*, Alger, 1951, t. I, pp. 737-738.

(٩٧) اتّبع الخليفة المتوكّل هذه السّياسة المتشدّدة تجاه النّصارى وغيرهم من أهل الذّمّة في مناسبتين اثنتين، كانت الأولى سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠م، وكانت الثّانية سنة ٢٣٩ هـ/ ٨٥٤م. يُنظر تفاصيل ما أمر به في: الطبري، **تاريخ**، ج ٩، ص ١٧١-١٧٥، ١٩٦ ؛ العايب، **تغلب بين المسيحية والإسلام**، ص ٩٩ ؛

Eddé, Micheau et Picard, *Communautés chrétiennes en pays d'Islam*, p. 70.

(٩٨) ابن خلدون، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٦١.

(٩٩) الطبري، **تاريخ**، ج ٩، ص ١٧٢.

(١٠٠) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص 191-199.

(١٠١) نفس المصدر، ص ١٩٨.

(١٠٢) نفس المصدر، ص ١٩١-١٩٩.

(١٠٣) في أطروحتي للدكتوراه، كنت قد تناولت الخبر الذي ساقه ابن حوقل حول اعتناق بني حبيب النّصرانيّة بعد دخولهم بلاد الرّوم دون أن أنقده. لعلّ هذه الفكرة في هذا المقال تكون بمثابة اللبنة التي تسدّ تلك الثّغرة. يُنظر :

Labidi (Béchir), *Les frontières entre Byzance et l'Orient musulman (VIIIe – XIe siècles)*, thèse de doctorat encadrée par Mohamed Tahar Mansouri (travail non publié), Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 2012, t. II, pp. 373-375.

(١٠٤) السّرياني، **تاريخ**، ج ٣، ص ٦١.

(105) Skylitzes (John), *A Synopsis of Byzantine History 811-1057*, Trans. by John Wortley, with introductions by Jean-Claude Cheynet & Bernard Flusin, Cambridge, Cambridge University Press, 2010, pp. 181-182 ; Labidi, *Les frontières*

*entre Byzance et l'Orient musulman*, t. II, pp. 536-550 ; Canard (Marius), « Deux épisodes des relations diplomatiques arabo-byzantines au Xe siècle », in *Bulletin d'Études Orientales*, (1949-1951), t. XIII, p. 57.

(١٠٦) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٨٤.

(١٠٧) ابن العديم (أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله)، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق، خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦، ص ٧٢-٧٥ ؛

Canard, *Histoire de la dynastie des H'amdanides*, t. I, pp. 720, 732-735.

(١٠٨) ابن العديم، **زبدة الحلب**، ص ٧٦، ٧٨، ٨٠-٨٤ ؛

Canard, *Histoire de la dynastie des H'amdanides*, t. I, pp. 732-735.

(١٠٩) حول تهجير السّكان المسلمين وتعمير المناطق الحدوديّة بغير المسلمين وخاصة بالأرمن يُنظر مثلا: ابن العبري (أبو الفرج جمال الدين)، **تاريخ الزّمان**، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦، ص ٦٣ ؛

Charanis (Peter), « Armenians and Greeks in the Byzantine Empire », in Charanis (Peter), *Social, economic and political life in the Byzantine Empire*, Collected studies, London, Variorum Reprints, 1973, pp. 24-26 ; Labidi, *Les frontières entre Byzance et l'Orient musulman*, t. I, pp. 153-157.

(١١٠) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٩٢.

(١١١) Texte cité in Andréadès (A.), « De la monnaie et de la puissance d'achat des métaux précieux dans l'empire byzantin », in *Byzantion*, 1924, t. I, p. 107.

(١١٢) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٩٢.

(١١٣) نفس المصدر، ١٩١-١٩٥.

(١١٤) نفس المصدر، ص ١٩٢.

(١١٥) نفس المصدر، ص ١٩١-١٩٥، ١٩٨، ٢٠٣.

(١١٦) نفس المصدر، ص ١٩٢.

(١١٧) نفس المصدر، ص ١٩٢.

(١١٨) نفس المصدر، ص ١٩١.

(119) Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History*, pp. 216-217 ; Treadgold (Warren), *Byzantium and its army 248-1081*, California, 1995, pp. 78, 110-111.

(١٢٠) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٩٢.

(١٢١) نفس المصدر، ص ١٩٢.

(122) Nau, *Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie*, pp. 15-17 ; Shahîd, *Byzantium and the Arabs*, vol. I, (Part 2), pp. 773, 842-843, 854-855, 924, 959.

(١٢٣) ابن خلدون، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٦. ؛ يُنظر أيضا : الأطرقجي، "تغلب ودورها في التّاريخ"، ص ١٧٤-١٧٥ ؛ العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ٨١-٨٨.

(124) Shahîd, *Byzantium and the Arabs*, Vol. I, (Part 2), pp. 694-708.

(125) Greatrex (Geoffrey) & N.C. Lieu (Samuel), (Editors), *The Roman Eastern Frontier and the Persian Wars. Part II AD 363–630. A narrative sourcebook*, London & New York, Routledge, 2002, p. 221 ; Foss (Clive), « The Persians in the Roman near East (602-630 AD) », In *Journal of the Royal Asiatic Society*, Third Series, 2003, vol. 13, (N. 2), pp. 154-156.

(١٢٦) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦ ؛ ابن خلدون، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٦.